غواص على الطريق

رامي يوسف

obeikan.com

غواص علي الطريق
المؤلف : رامي يوسف
الطبعة الأولي ٢٠١٢

دار الحلم للنشر والتوزيع
القاهرة ،٤ شارع الأشراف - تقسيم العسال - شارع
مؤسسة الزكاة - المرج

موبايل :
01141824562
:E-Mail
dar_el7elm@hotmail.com
المدير العام :
د/اسلام فتحى

تصميم الغلاف :
أسامة علام

إخراج داخلي :
إبـداع للـدعـاية والإعـلان

رقم الايداع : ٢٠١٢/١٦٢٤٧
الترقيم الدولي : ٠-٠٤-٦٤١٢-٩٧٧-٩٧٨

obeikan.com

الإهداء

أود أن أتقدم بجزيل شكري لمن لهم أكبر الفضل بعد الله في أن تكون قصصي بين أيديكم.
لأبي وأمي وإخوتي وأصدقائي، الذين وثقوا في كتاباتي، وكانوا دوما ما يقرأون ما أكتب من قبل أن أنشره.

لأستاذتي في عالم الصحافة والأدب، الأديبة والصحفية اللامعة أ. نوال مصطفى، على تشريفي بتقديم مجموعتي القصصية التي هي بين أيديكم.
ولمشروع«النشر لمن يستحق» وكل القائمين عليه، على مجهودهم العظيم في نشر مجموعتي القصصية الأولى.

إلى د/إسلام فتحي ، صاحب دار«الحلم»،التي أتشرف بنشر مجموعتي الثانية فيها،والتي توسمت من اسمها أن الحلم يوما سيصبح حقيقة معها.
ولم ولن أنسى أول من كانت بجانبي، ووثقت بي، وشجعتني على الكتابة، واحتملتني في أوقات يأسي وأوقات حزني، ربما نلتقي مرة أخرى، وربما تغمرنا أمواج الحياة، ولا نلتقي مرة ثانية، إلا أنني مهما مرت السنوات، أريدها أن تعلم أنها ستظل دائما في قلبي.

رامي يوسف

المقدمة

يسعدني كثيرا أن أقرأ نصا أدبيا واعدا لكاتب شاب، خاصة إذا كان العمل يحمل رؤية مختلفة للحياة، نابضة بالمشاعر، مجسدة للحظات خاصة في حياة البشر.

وهذا ما شعرت به وأنا أقرأ العمل الثاني للكاتب الشاب رامي يوسف، كان العمل الأول له مجموعة قصصية بعنوان «هكذا شاءت الأقدار»، صدرت من دار ليلى للنشر في بداية عام ٢٠١٢، وكان عملا جيدا، بالطبع كانت هناك بعض الهنات، التي لا بد أن يحملها العمل الأول، وهذا لا يعيبه؛ فالأدب فعل مستمر، لا بد أن نكتب ونخطئ ونتعلم ونجيد ونتقن ونتعب حتى نصل إلى المستوى الذي يرضينا أولا، ثم يرضي القراء والنقاد بعد ذلك.

أهداني «رامي يوسف» مخطوطة مجموعته القصصية الثانية، وعنوانها «غواص على الطريق»، وقد قسمها إلى ثلاثة أجزاء، الأول: «حكايات من الحياة»، والثاني: «حكايات من وحي الخيال» (فانتازيا)، والثالث: رواية قصيرة أو أقصوصة بعنوان «نوفيلا».

استوقفتني قصة عنوانها «عازفة الفلوت»، بفكرتها الإنسانية العميقة، وقدرة الكاتب على مناقشة قضية حوار الثقافات، بأسلوب أدبي جميل وبسيط، من خلال شابين (جلال وناجح) يعملان معا بإحدى الشركات، ويتصادف أن يحصلا على فرصة للسفر إلى ألمانيا، للعمل في مقر الشركة الجديد هناك.

تتسع عيون الشابين المصريين وزاوية رؤيتهما للحياة عندما تفاجئهما حضارة الدول المتقدمة، ويكتشفان أن قيم العمل والنظام والإتقان هناك

مقدَّسة.

وتدور في عقليهما دائما مقارنة بين ما يحدث هناك وما يجري في مصر من إهمال وتجاهل لتلك القيم التي تجعل البشر والأمم جديرين بالتحضر والتقدم. وكأن هذه المقارنة هنا هي نوع من الحسرة والأسى على أحوال وطنهما الحبيب الذي كانا يتمنيان أن يكون على نفس مستوى التحضر الذي رأياه.

ولا يفوت الكاتب الشاب «رامي يوسف» أن يعزف على وتر الجانب الروحاني الإنساني من خلال حكاية «ميلينا»، وهي طفلة ألمانية التقاها جلال وناجح في الطريق مصادفة من مقر الشركة إلى مكان إقامتهما بألمانيا. كانت تعزف أجمل المقطوعات الموسيقية على آلة الفلوت، وهي جالسة على أحد الأرصفة على جانب الطريق، وكان المارة يتوقفون عند سماع ألحانها الأخّاذة، ويقفون لدقائق يستمعون إلى ألحانها الجميلة وعزفها الرائع على الرغم من صغر سنها.

ولفت نظر الشابين المصريين أن المارة يضعون قطعا من النقود المعدنية في علبة صغيرة بجانب العازفة الصغيرة،

وسأل ناجحُ جلال في دهشة: هل هكذا يتسولون في البلاد المتقدمة؟!

وكان للسؤال أكثر من دلالة، وكأن الكاتب يريد أن يقول: حتى الفقراء في هذه البلاد، الذين يحتاجون إلى التسول، يبحثون عن فكرة أو عمل بسيط يقدمونه إلى الناس، حتى يحصلوا على إعجابهم وبعض العملات الصغيرة، تقديرا لإبداعهم ومحاولتهم الكريمة لكسب الرزق.

سؤال عميق الدلالة، نجح الكتاب في أن يضعه على لسان إحدى الشخصيات المحورية في القصة والمقارنة بين الحضارتين: حضارة مصر العظيمة بتاريخها وآثارها، وحضارة الغربيين الذين اقتبسوا أنوار التقدم من حضارتنا، وارتفعوا بها إلى مصاف الأمم الراقية.

وكأن الكاتب يود أن يقول: لماذا انحدر بنا الوضع إلى هذا التردي حتى في الأخلاق والإحساس بالكرامة؟

قصة «عازفة الفلوت» من أجمل قصص المجموعة، وهناك قصص وحكايات أخرى، سأترك القارئ يستمتع بها، ويعيش مع سطورها.

وفي النهاية أود أن أقول: إن «رامي يوسف» كاتب يملك أدواته، وأنصحه بمزيد من القراءة للأدب المصري والعالمي، والكتابة باستمرار؛ لأنه مشروع كاتب حقيقي.

نوال مصطفى

openkan.com

الجزء الأول
من الحياة حكايات
(قصص قصيرة)

obeikan.com

الحكاية الأولى
عازفة الفلوت

جلس جلال على مكتبه في الشركة التي يعمل بها، حين دخل عليه زميله ناجح متهللا، فسأله جلال في دهشة: ماذا بك؟ لماذا كل هذه الفرحة؟ هل ربحت في الـ«يانصيب»؟!

فأجابه ناجح: بل أكثر من هذا، بالطبع أنت تعلم أن شركتنا تتفاوض من فترة لفتح فرع لنا في ألمانيا..

قال جلال: أجل، أعلم هذا، هل نجحت مفاوضاتنا أخيرا؟

قال ناجح: ليس هذا فقط، لكن خمن مَن المهندسون المرشحون للإشراف على إقامة المشروع هناك؟!

قال جلال في فرح: لا تقُل.. هل نحن من سنسافر؟

قال ناجح: أجل يا صديقي، هل لديهم من هو أكفأ؟! عليك الاستعداد للسفر خلال أسبوع.

وظلا يتناقشان في تفاصيل السفر وما يتوجب عليهما إعداده ووقت سفرهما وبعض التفاصيل، حتى انتهى موعد عملهما.

وحين عاد جلال إلى منزله فرحا، سألته والدته عن سبب كل هذه الفرحة، فأخبرها أنه سيسافر إلى ألمانيا مع بعض المهندسين زملائه للإشراف على إنشاء فرع الشركة هناك. هنَّأته والدته وسألته كم سيمكث هناك، أخبرها أنه مبدئيا سيظل هناك ستة أشهر، وسيعود بعدها إلى مصر، لكن سيكون له سفريات قصيرة من وقت لآخر.

كان جلال قد تخرج في كلية الهندسة منذ خمس سنوات، وكان راتبه في

شركته أعلى نسبيا من الذين في سنه نفسها، إلا أنه على الرغم من ذلك كان يطمح منذ فترة إلى السفر، لمعرفته أن بدل السفر وبعض البدلات ستساعده كثيرا، ونام وهو يحلم بسفره إلى ألمانيا.

ومر الأسبوع، وأنهى الإجراءات، وسافرا هو وناجح إلى ألمانيا. كان أول ما لفت نظره حين وصل ألمانيا الجو النقي؛ حيث شعر أن الهواء هناك يختلف تماما عنه في مصر.

غير أنه، كأي مصري في أول مرة يسافر إلى الخارج، انبهر بكل شيء، من التقدم والنظافة في كل شيء يراه، النظام الذي لا يخالفه أحد، ولا يوجد شرطي لتنظيم المرور مثلما في مصر، ولكن كل شيء يدار إلكترونيا، والطرق منظمة كل حسب سرعته له طريق متسع يسير به، الطرق لا توجد بها مطبات أو حفر.

بالطبع ككل دول العالم كانت لهم سلبيات، إلا أنه مقارنة بينهم وبين بلده أحس أن الفارق رهيب، لماذا لا يكون هناك مثل هذا النظام في بلده؟ ومن ثم قرر أن يستمتع بوقته هنا.

كان عمله ينتهي في وقت متأخر؛ فقد كان العمل يسير على قدم وساق، حتى ينتهي منه في الوقت المحدد، وفي يوم إجازته، كان ينزل مع زميله وصديقه ناجح ليشاهدا المعالم السياحية في ألمانيا، كانا يعلمان أن ألمانيا من أكثر الدول السياحية نشاطا في العالم.

كانا يذهبان كل أسبوع إلى مكان مختلف، شاهدا الكثير من المعالم التي أعجبتهما، مثل المتاحف؛ فقد كانت برلين وحدها تحتوي على أكثر من مائة وسبعين متحفا واثني عشر مركزا للتسوق، هذا غير الغابات التي تزخر بأجمل المناظر الطبيعية، وهي من أكثر الأماكن التي أعجبتهما، فآثارهم على الرغم من كثرتها فإنها تفتقد طابع آثارنا الفرعونية، وهو ما أشعرهما أنه على الرغم من كل الفوارق بيننا وبينهم فإننا نملك شيئا لا يملكونه هم

على الرغم من هذا كله.

وذات يوم.. وهو عائد من عمله في نهاية النهار ومعه ناجح، سمع صوت موسيقى رائعة خطفت قلبيهما، فاتجها إلى مصدر الصوت فوجدا فتاة صغيرة، تعزف على آلة «الفلوت»..

لم تكن الفتاة تتجاوز العاشرة أو الحادية عشرة من عمرها، كانت فائقة الجمال، شقراء، زرقاء العينين، وكانت ترتدي ثوبا بسيطا، إلا أنه نظيف للغاية، وكانت تجلس على الأرض، وتعزف على آلة «الفلوت» أنغاما في غاية الروعة، تأخذ إلى عالم الخيال.

كان جلال من عاشقي الموسيقى الكلاسيكية، واستمع إلى عزفها، كانت موهوبة بلا شك، كانت تعزف على آلة «الفلوت» مقطوعة الراعي الوحيد (lonely shepherd)، ووقف حولها بعض الأشخاص يستمعون إلى عزفها، حتى انتهت، فأخرج بعضهم بعض الماركات ووضعها لها في علبة صغيرة تضعها بجانبها.

أخرج جلال وناجح أيضا بعض الماركات ووضعاها لها في العلبة، وقال لها جلال: أنت تعزفين ألحانا رائعة يا صغيرتي. ما اسمك؟

قالت له الصغيرة باسمة: «ميلينا» يا سيدي.

وسألها جلال إن كانت تجلس باستمرار في هذا المكان، فأجابته بالإيجاب، فأخبرها أنه سيأتي في الغد ليستمع إلى المزيد من عزفها.. ابتسمت الطفلة في سعادة وأخبرته أنها سوف تنتظره.

انصرف جلال وناجح، وأثناء سيرهما قال ناجح لجلال: هل رأيت التسول هنا كيف يكون؟!

فأجابه: أنا حقا اندهشت، هذه الطفلة الموهوبة تتسول! وانظر كيف تعزف على الفلوت ألحانا رائعة، لقد كذبت نفسي في البداية، لكن حين رأيت الكل يضع لها النقود في العلبة بجانبها أدركت أنها تتسول، مع أن

زيّها لا يوحي أبدا بأنها تحتاج إلى النقود، شتان بينها وبين المتسولين عندنا في مصر.

التقيا أثناء سيرهما «ماير»، وهو مهندس ألماني يعمل معهما في المشروع المشترك، وشرعا يحكيان له ما رأياه.

اندهش من تعجبهما، وقال لهما: ليس الأمر غريبا، لدينا هنا أسواق متخصصة تبيع ملابس جيدة بأسعار مخفضة، فمن حق أي إنسان أن يلبس وأن يأكل جيدا، ربما اشترت ثوبها هذا من هناك، ليس اللباس بمقياس على الحالة المادية.

نظر ناجح إلى جلال نظرة ولم يتكلما.. إلا أن جلال فهم ما يقصده، ناجح يريد أن يقول له: ألم أقل لك إن المأكل والملبس من حق كل إنسان؟ هذا من حقوقه الآدمية.

التفت إليهما «ماير» وسألهما: ألا يوجد عندكما في مصر أسواق مثل هذه؟ قال له ناجح في سخرية مريرة: لا يا رجل، وما حاجتنا إليها؟ نحن لا يوجد لدينا متسولون من الأساس، الدخل مرتفع والحياة هانئة، وكل شيء بخير، حتى إن ملايين العاطلين عندنا الحكومة تصرف لهم معاشات تكفي معيشتهم بأفضل الصور.

كان جلال يستمع إليه في صمت وأسف، ولم يتكلم، في حين قال «ماير» - ولم ينتبه إلى سخرية ناجح وظنه يتكلم بجدية -: نحن أيضا نصرف للعاطلين عن العمل معاشا يكفي احتياجاتهم الأساسية من مأكل وملبس، ولكن من يطمح إلى حياة أفضل من هذه أو له احتياجات أخرى، فلا بد له من البحث عن عمل، ربما مثل هذه الفتاة التي رأيتماها تعزف اليوم والتي تحكيان عنها.

ووصلا في أثناء حديثهما إلى منزلهما، فودعا «ماير» وصعدا إلى منزلهما، وانهمكا في إعداد العشاء ونسيا أمر الفتاة وانشغلا في الكلام في أمور

العمل، حتى أنهيا عشاءهما وناما.
في الصباح ذهبا إلى عملهما، وعاد جلال يتذكر «ميلينا» في نهاية اليوم وهو عائد إلى منزله، وذهب من الطريق الآخر على الرغم من أنه أطول، إلا أنه شعر أنه يريد أن يستمع إلى هذا الملاك الصغير مرة أخرى، وتكرر الأمر عدة مرات، وأصبحت «ميلينا» تفرح برؤيته، ليس لكرمه معها فقط، ولكن لحنانه الأبوي عليها، وتشجيعه الدائم لها.
ومرت الشهور الستة، وفي يومه الأخير في ألمانيا وقبل عودته، مر كعادته على «ميلينا» واستمع إليها وأخبرها قبل رحيله أنه سيسافر إلى بلده، لكنه سيعود بالتأكيد، لكنه لا يعلم متى ستكون الزيارة المقبلة، أحنت الصغيرة رأسها في أسف وحزن، وأخبرته أنها كانت تتمرن على عزف مقطوعة جديدة على «الفلوت»، وعلى الرغم من أنها لم تنهها تماما، فإنها ستعزف له جزءا منها قد تدربت عليه.
وبدأت تعزف اللحن الرائع للأب الروحي، كانت الموسيقى مؤثرة، حتى إن جلال وناجح دمعت عيونهما مع عزفها الجميل، وودعاها بعد أن انتهت من عزفها، وعادا إلى المنزل؛ حيث أعدا حقائبهما وفي الفجر عادا إلى مصر.
مرّا في البداية بطور عدم تكيف معتاد لمن يقيم فترة طويلة بعيدا عن بلده، فينسى مشاكله ويتأقلم مع الجو الجديد، وحين يعود يصبح بلده كأنه هو المكان الجديد.
غير أنهما على الرغم من كل شيء يحبان وطنهما، فسرعان ما عادا ليتكيفا على هذا الوضع، وذات مرة بعد عودتهما، كان ناجح يحكي لأحد زملائه في المكتب عن «ميلينا» ويخبره عن الفرق الشاسع بيننا وبينهم حتى في طرق التسول.
وكان جلال يحكي لهم عن عزفها وكم أنها موهوبة.. حين سمع كلامه أحد مديريه جذب انتباهه الكلام، وقال لجلال: هل هي حقا بهذه الروعة؟

فأجابه: بل أكثر مما تتصور، استمع يا سيدي.. وأخرج من جيب سترته جهاز تسجيل صغيرا، وأداره وتعالى العزف الجميل في المكتب حتى انتهى، فقال له مديره في دهشة: حقًّا رائع.. لا أصدق أن طفلة في هذه السن الصغيرة تجيد العزف بهذه الطريقة!

قال جلال: كنت أود أن أصورها فيديو، إلا أن هذا ممنوع هناك، فلا يجوز أن ألتقط صورا لأحد المتسولين، فهذا مخالف للقانون، إلا أنني تحايلت على القانون، وقمت بتسجيل هذه المقطوعة في إحدى المرات.

قال مديره: إن الغرب مثله مثل الشرق في بعض الأمور، وهذا منها.

سأله ناجح: كيف يا سيدي؟

قال لهم: على الرغم من اهتمامهم بأساسيات الحياة، فإن هذه هي الأولويات لديهم، إلا أن عشرات المواهب تولد وتموت دون أن يشعر بها أحد مثل هذه الفتاة، التي ستعيش هكذا، وربما ينتابها اليأس بعد فترة وتتوقف دون أن يكتشفها أحد..

قال له جلال - في أسف -: أجل يا سيدي، أنت محق.. لقد كنت دائم التشجيع لها، إلا أنها لا بد أن يأتي يوم وتتوقف فيه الجدوى المادية لما تفعله، لسبب أو لآخر، وينتابها اليأس وتتوقف.

قال له مديره: دع هذا الأمر لي، ربما استطعنا أن نقدم يد المساعدة لهذه الفتاة بشكل جيد، أنت تعرف «هر جريج»، مدير الفرع الألماني الذي قمنا بافتتاحه هناك، إنه يعشق الموسيقى كما علمت منه، وله أسبوعيا حفل يذهب ليحضره في الأوبرا، سوف أكلمه عنها، ربما نجح أن يقدمها لأحد من معارفه هناك، وهم سيتولون أمرها وسيتكفلون بتعليمها وتنمية موهبتها.

رحَّب جلال بالأمر، وأخبره مديره أنه - جلال - سيسافر خلال ثلاثة أشهر مرة أخرى إلى ألمانيا، فعليه قبل أن يسافر أن يذكره ليكلم له «هر جريج» ويخبره بالأمر، وعليه هو حين يذهب أن يدبر لأمر لقائه مع «ميلينا».

ومرت الأشهر الثلاثة، وسافر جلال إلى ألمانيا للمرة الثانية، وفي أول يوم وهو عائد من عمله، ذهب إلى المكان الذي تجلس فيه «ميلينا» دائما، إلا أنه لم يجدها، وتعجب.. إلا أنه قال ربما تكون مريضة، ومر في اليوم التالي، والتالي، والتالي.. ولأسبوع كامل، لم يجدها.

قال لنفسه: أتراها اتخذت عملا آخر؟ ثم قال لنفسه: ليس هذا معقولا، من هنا سيجعلها تعمل في هذه السن الصغيرة؟! وسأل رجلا مسنا صاحب محل صغير كانت «ميلينا» تجلس بجانبه كل يوم عنها، فأخبره العجوز في أسف أن «ميلينا» قد ماتت..

استمع إليه جلال في حزن، وقال له: ماتت؟! هل هو حادث؟

قال الرجل المسن في حزن: لا، لقد كانت مريضة، إلا أنه حسبما سمعت منها ذات مرة أنها تعاني عيبا خلقيا في القلب، ومنذ شهر تقريبا زاد عليها الألم ولم تعد تستطيع النزول، كنت أذهب إليها في منزلها القريب من هنا لأطمئن عليها.

قال له جلال في حزن: هلا أعطيتني عنوان منزلها هذا من فضلك لأذهب لأعزّي والديها..

وصف له الرجل العنوان وذهب جلال إلى هناك، ووجد منزلا بسيطا للغاية، تحيا به امرأة في منتصف العمر إلا أنها قعيدة، ولا تفارق كرسيها المتحرك، عرَّفها جلال بنفسه، وعزاها في مصابها الأليم، وأكد لها أن ابنتها «ميلينا»، رحمها الله، كانت موهوبة، ولكنه القدر، لقد كان على موعد مع شخص سيقدمها إلى موسيقار كبير، إلا أنها كانت على موعد مع القدر من قبله..

بكت والدتها وأخبرته أن «ميلينا» كانت تكلمها عنه، وعن طيبته وتشجيعه لها، ولقد تركت له قبل أن تموت خطابا.. لقد كانت تعلم أنك ستأتي يوما ما وستسأل عنها، وأخرجت من جيب ثوبها مظروفا وأعطته له، أخذه منها

في ألم ووضعه في جيبه، وأخرج مبلغا من المال وأعطاه لوالدتها، وأخبرها أنه سيمر عليها من آن لآخر، إن احتاجت شيئا، وخرج..

وبينما هو يسير في الطرقات الهادئة في هذا الوقت، أخرج جواب «ميلينا» من جيبه ليقرأه، فوجد بداخله ورقة مطوية وشريط تسجيل صغيرا.. فتح الورقة ليقرأ ما بها..

صديقي ومشجعي أستاذ جلال، واسمح لي أن أناديك بصديقي، أردت أن أشكرك على ما فعلته من أجلي، أجل ما فعلته من أجلي، إن مرورك المستمر وتشجيعك لي كان لهما أكبر الأثر في نفسي، منذ عام كنت أعلم أني سأموت وأن حالة قلبي ليس لها علاج..

لقد كنت أعزف فقط للحصول على بعض الماركات، لأساعد أمي في المعيشة، لكنني كنت أعلم أنني يوما ما سأتركها، فقط منذ أتيت أنت، وبحماسك وتشجيعك المستمر لي، جعلتني أنسى مرضي، وأنسى أنني سأموت، وأتعلم أكثر، لأتعلم ألحانا جديدة لأُسمعك إياها، فلقد كانت سعادتي بتشجيعك المستمر لي لا توصف..

لقد تركت لك على هذا الشريط المقطوعة الأخيرة التي أسمعتك جزءا منها حين رأيتك آخر مرة، كنت أعلم أنك تحب هذه الموسيقى، ولقد سجلتها لك على هذا الشريط حين انتهيت منها، كنت أود أن أنتظرك لتسمعها مني، إلا أنني شعرت أنني ربما لا ألقاك مرة أخرى في هذه الدنيا، فتركتها لك لكي تتذكرني كلما استمعت إليها..

مرة أخرى.. أشكرك كثيرا يا سيدي، لقد منحتني شيئًا جميلاً للغاية في أيامي الأخيرة، لقد منحتني الأمل، فشكرا لك وتذكرني دائما.. صديقتك الصغيرة «ميلينا».

أنهى جلال قراءة الخطاب، وسالت العبرات من عينيه، وقد شعر بالحزن والأسى من كلمات هذه الصغيرة، الكلمات التي لم يكن يتوقع أن تصدر

من طفلة في مثل عمرها، إلا أنه كان من الواضح أن الحياة قد علمتها الكثير، حقا ليس التعليم هو الذي ندرسه في المدارس فقط، فالحياة هي خير معلم.

وقال وهو يقبض على الخطاب والشريط بيده: سأتذكرك يا «ميلينا»، سأتذكرك إلى الأبد أيها الملاك الصغير، الذي جاء ليعيش ويعانى ويموت في هدوء، سأتذكرك ليس وأنت جالسة تعزفين في الشارع، لكني سأتذكرك واقفة على المسرح تعزفين لحنك الأخير، والجماهير تصفق لك بحرارة، هل تسمعين تصفيق الجماهير؟ إنهم يهتفون: «ميلينا».. وداعا يا عازفة الفلوت الأجمل والأرق في العالم.

obeikan.com

الحكاية الثانية
النبوءة

جلس تامر في ردهة فيلته قلقًا يفكر..
سألته زوجته سارة: ماذا بك يا تامر؟! إنك لست على ما يرام هذه الأيام..
أجابها: لا شيء يا حبيبتي، إنها بعض المشاكل في العمل. وعاد يشرد بذهنه مرة أخرى.. كان يسترجع ذكرى تراوده منذ شهر.
كان منذ خمس سنوات شابا طموحا، إلا أنه لم يكن يملك شيئا مما يملكه الآن، كان يملك طموحه ومشروعا صغيرا ورثه عن والده، كان محلا للتحف .. وكان يدر عليه دخلا بسيطا، وكان وقتها يبحث عن وظيفة بجانب المحل، ليستطيع أن يؤثث شقته ليرتبط بسارة التي كانت خطيبته آنذاك.
حين خرج في رحلة إلى الإسكندرية مع أصدقاء له وجدها.. عرافة، بزيها المبهرج.. كانت جالسة على الشاطئ.
قال له أحمد: لنقرأ طالعنا..
رد عليه تامر في سخرية: ادخر قروشك القليلة، فقدرنا معروف ولا أحتاج إلى أحد ليحكيه لي، إلا أن المرأة سمعتهما.. هو لا يعلم بذلك، أشارت لهما على الرغم من أنهما كانا بعيدين عنها.. ذهبا إليها..
قالت لهما: تعالا أيها الشابان، سأقرأ لكما طالعكما أنتما الاثنان بخمسة جنيهات فقط. كان المبلغ زهيدا فعلا.
فأسرع أحمد إليها لتقرأ طالعه، أخبرته ببعض الأمور عن مستقبله، وأنه سيتزوج وسينجب ثلاثة أطفال، لكنه سيواجه صعوبة في الحصول على

عمل، وحينما جاء دوره جلس من دون اكتراث ليستمع إليها.
فنظرت إليَّه وعيناها تلمعان وهي تقول له: إنك عنيد أيها الشاب، ولا يعجبك حالك، إلا أن الحياة أمامك مليئة بالمفاجآت، أراك تخسر وتخسر كثيرا، سوف تخسر ثلاث صفقات ضخمة، الصفقة الثالثة والأخيرة ستقضي عليك!!
فنظر إليها في دهشة، وهو يقول في ذهنه : ماذا تقول هذه المعتوهة؟ أين هذه الصفقات؟! إن كل ما يملكه هو المحل وإن خسر كل ما به أصلا فهو لا يستحق أن يطلق عليه اسم الصفقة!!
وكأنها سمعت ما يدور بذهنه، قالت له: ستنجح أيها الشاب، وستصبح ثريا سريعا، إلا أن فرحتك لن تدوم، فستأتي خسارتك في ظرف، ولكن لست أدري أخلال خمسة أشهر، أم خمس سنوات، إنها لن تأتي إلا بعد أن تحقق نجاحا كبيرا.. وقاما على ذلك ونقدوها الخمسة جنيهات.
إلا أنه لم يهتم وقتها بكلامها؛ فقد كان بعيدا عن أن يتحقق، ومضت الأيام وعادو إلى القاهرة، وتمر شهور والحياة تزداد ضيقا، ولا يجد وظيفة ولا يدري ماذا يفعل ، حين أتي الفرج في صورة غير متوقعة.
فقد جاء تاجر يريد أن يشتري المحل الذي يملكه، بعد أن اشترى العقار بالكامل، وأراد أن يهدمه ليبني مكانه برجا كبيرا، إلا أنه أمام رفض تامر المستمر، عرض عليّه مبلغا أكبر من قيمة المحل، لا لشيء إلا ليتمكن من هدم العقار، وبعد تفكير وافق وباع المحل، واستثمر المال في تجارة بسيطة، وبدأ يكبر بها، كانت في مجاله أيضا، في التحف لكن بتوسع؛ حيث كان قد توصل لمستورد كبير، وبدأ يعمل فى التوزيع كتاجر جملة، وبدأت تجارته تترعرع، وفتح محل تحف كبير بجانب التوزيع وبدأت تجارته تروج، وبالفعل ارتبط بسارة منذ ثلاثة أعوام، والآن نجح في الانتقال من شقته المتواضعة إلى هذه الفيلا..

وكانت الحياة باسمة، إلا أنه اصطدم لأول مرة منذ بدأ تجارته بحادث أدى لاحتراق المحل الذي يملكه ، وهو ما كان يعني خسارة مالية كبيرة، إلا أنها لم تعجزه تماما، فقد استطاع أن يعيد تأسيسه من جديد، وحاول أن يعوض خسارته بصفقة كبيرة، إلا أن البضاعة لم تكن بالمستوى المنشود، مما أدى إلى بيعها بسعر تكلفتها، مما جعله يخسر بها فرق سعر شحنها وتخزينها وتكاليف السفر إلى الصين.. ولقد عزا هذا إلى تكاسله عن السفر؛ فالذين أرسلهم ليسوا بالخبرة الكافية لإحضار هذه الشحنة.

ومنذ شهر، بدأت الحوادث والخسارة تتوالى عليّهَ، وهو يتذكر نبوءة العرافة التي نسيها طوال هذه الأعوام، في ظل النجاح الذي لاقاه.

غير أنها الآن تعود لترن في أذنه بقوة: «أراك تخسر ثلاث صفقات، والثالثة ستقضي عليك».. وأنا حقا خسرت صفقتين، وبالفعل هو يعد لصفقة كبيرة ، إلا أنه سيسافر بنفسه لكي يتفادى أخطاء المرة السابقة، ولأنه حقا سيخاطر بها بآخر ما يملك، أملا في تعويض خسارته..

وإن فشلت الصفقه حقا سيخسر كل شيء، ستقضي على اسمه وتجارته ويضيع كل ما صنعه طوال هذه السنوات..

وأفاق من شروده وهو ينظر بجانبه ليجد سارة جالسة تنظر إليَّه بحزن وأسف.

وتسأله: ماذا بك؟ أنا لم أرك بهذه الحالة منذ أن تزوجنا.

فقال لها: أنت ترين الحال وما صرنا إليه، إن سوء الحظ يلازمنا، فخسارتي الفترة الماضية تكاد تفلسني.

قالت له: ألم تقل لي إن الصفقة التي ستعقدها ستعوض خسارتك هذه؟!

تردد لحظة ثم شرع يحكي لها كل شيء عن النبوءة والعرافة، وانتظرتْ حتى انتهي..

وقالت له: هناك مقولة تقول: كذب المنجمون ولو صدقوا، وليس معنى

أن شيئا من الذي أخبرتك به تحقق أن كل نبوءتها حقيقية وأنها ستحدث، ونظرت إليَّه فوجدت على وجهه نظرة عدم اقتناع، فقالت له باسمة: حسنا.. لو ألغيت هذه الصفقة، فما الحلول المتاحة الأخرى بدلا منها؟

قال لها: أن أعتمد على البيع في المحل فقط، وأوقف أعمال التوزيع والتوريد حتى أستطيع أن أجمع مبلغا من المال خلال عدة أعوام يجعلني أستطيع أن أعمل مرة أخرى في التوريد..

قالت في استنكار: لا بالطبع، هل ستضحي بعملك وشركتك وتكتفي بالمحل من أجل نبوءة غير مؤكدة؟!

قال: لكن الذي حدث في الفترة السابقة يقلقني.

ربتت على كتفه في حنان وهي تقول له: إن نصيبنا لا مفر منه، وأنت مؤمن، فتوكل على الله واذهب في رعايته والله سيعينك، وستعوض خسارتك إن شاء الله، وانسَ أمر هذه النبوءة تماما.

وبعد تفكير وافق.. فالأمر بالفعل صعب ولن يضحى بكل ما صنعه.

وذهب وتعاقد في الصين، بعد جولة أخذت منه عدة أيام، وأرسل البضاعة، وظل في الصين حتى وصلت الشحنة إلى مصر، وتم تسلمها وتخزينها واطمأن قلبه إلى أن كل شيء بخير، فحجز تذكرة طيران.. في الطائرة نام وهو يشعر براحة، ويلوم نفسه على القلق الذي صنعه طوال الفترة الماضية، وتصديقه لنبوءة العرافة التي كادت تدمر حياته.

وبينما كان يفكر سمع صوت المضيفة تطلب من الركاب ربط الأحزمة، وتعجب؛ حيث إن الطائرة ما زالت بعيدة عن مصر، إلا أنه ربط الحزام وهو يسأل المضيفة: ما الأمر؟ لماذا نربط الأحزمة من الآن؟!

فقالت المضيفة في قلق: حدث عطل في محرك الطائرة، والكابتن يحاول الاتصال بأقرب مطار لنهبط هناك اضطراريا لحين إصلاح العطل. وبدأ يلاحظ أن الطائرة ترتج، وذهبت المضيفة مسرعة إلى مقعدها وهو يفكر

في النبوءة.. الصفقة الثالثة ستقضي عليك، كانت العرافة إذًا محقة في كلامها حرفيا.. سيموت الآن.. الصفقة الثالثة حقا ستقضي عليّهَ.

ورأي الطائرة تهبط إلى أسفل في غير انتظام، وتعالت الصرخات في الطائرة، ووجد الطائرة تهبط بسرعة، حتى هبطت هبوطا خشنا، إلا أن الأحزمة ثبتت الركاب في مقاعدهم، ولم يصب أحد بأذى من الركاب، حتى توقفت الطائرة، وهبطو منها في المطار وتنفس الصعداء..

وعرف أنهم سيتأخرون لحين إصلاح الطائرة، فأسرع بالاتصال من هاتف دولي في المطار ليطمئن سارة أنه بخير، وأخبرها بما حدث، وأن النبوءة لم تتحقق وأنه يحبها جدا، وأنه لم يعد يصدق نبوءات العرافين.. حتى لو صدقوا.

obeikan.com

الحكاية الثالثة

المهرّج

تعالت ضحكات الجماهير على «آرثر» وهو يقوم بحركات فكاهية بوجهه المصبوغ مع زميله «جاك»، أنهيا فقرتهما وضج السيرك بالتصفيق، وانسحب «آرثر» و«جاك» إلى ما وراء الستار، وقال «جاك» لـ«آرثر»: العرض اليوم كان مميزا. ابتسم «آرثر» في هدوء وقال: هذا بفضلك يا صديقي. قال «جاك»: كفاك تواضعا.. أنت أستاذ يا صديقي.

ابتسم «آرثر» ودخل إلى غرفته ليغير ملابسه، فوجد «جون» ابنه ذا الخمسة عشر عاما يستذكر دروسه، فقال له: كيف حالك يا «جون»؟

قال «جون» دون أن ينظر إليه: بخير..

«آرثر»: هل ما زلت غاضبا مني من مناقشة أمس؟

«جون» في غضب: أجل.

«آرثر»: لماذا يا بني؟ ماذا بيدي أن أفعل ولم أفعله؟!

«جون»: أن نرحل من هنا وتعمل في أي وظيفة أخرى، لقد قلت لك إن «ماري» صديقتي وعدتني أن تجعلك تعمل مع والدها في إحدى شركاته، فلتترك عملك هنا.

«آرثر» في حزن: يا بني أنا وُلدت هنا، وعشت هنا، وليس من السهل بعد هذا العمر أن أبدأ من جديد، أنت ما زلت صغيرا ومستقبلك أمامك، أما أنا فلا..

قطَّب «جون» حاجبيه وظل صامتا لم يجب، وإن بدا على وجهه عدم

الاقتناع.
تنهد «آرثر» في أسف وخرج من هناك، ووجد «رامون» - لاعب الخناجر - واقفا خلف الستار يتكلم مع زميلته «ماري»، التي تشاركه فقراته، وحين نظر إلى وجه «آرثر» وجده حزينا، فسأله: ماذا بك يا «آرثر»؟
«آرثر»: لا شيء يا صديقي، لا تشغل بالك.
«رامون» في أسف: أهو «جون» مرة أخرى؟!
هز «آرثر» رأسه في أسى.
فقال له «رامون»: لقد حان موعد فقرتي، انتظرني يا صديقي سأنهيها وأعود إليك سريعا.
وخرج «رامون» ومعه «ماري»، وصفق الجمهور عند ظهورهما وأُطفئت أنوار السيرك ما عدا بقعة من النور مسلطة على «رامون»، وأخرى على «ماري»، ووقفت «ماري» أمام جدار خشبي وفردت ذراعيها، و«رامون» يلقي خناجره في مهارة حولها دون أن يصيبها أي خنجر منها، وإن كانت تستقر على بعد سنتيمترات معدودة من جسدها.
ألقى كل خناجره والجماهير تصفق له في حرارة. أحضر اثنان من العاملين في المسرح عجلة دوارة، وربطا «ماري» عليها بإحكام وأداراها.. اندفعت العجلة تدور في سرعة متوسطة، ثم بدأت السرعة تتزايد، و«رامون» يسدد خناجره في قوة لتستقر كلها حول «ماري» والسرعة تزداد حتى سدد آخر خنجر ليستقر بجانب عنق «ماري».
التهبت أكف الناس بالتصفيق، وفك «رامون» «ماري» من العجلة، وانحنيا يحييان الجمهور، وخرج معها إلى ما وراء الستار، صافحه «آرثر» وهو يهنئه على العرض الرائع هو و«ماري»، قالت «ماري»: على الرغم من أن «رامون» تمرن كثيرا على عرض العجلة الدوارة فإنني ما زلت أشعر بالخوف في كل مرة.

قال لها «آرثر» باسما: لا تقلقي يا عزيزتي، فإن معك «رامون» أعظم مسدد للخناجر في سيرك بارني.

ابتسم «رامون» في تواضع وهو يقول: لست مثلك يا آرثر، أنت حقا أبرعنا، أنت تجيد تسديد الخناجر وتجيد التعامل مع الوحوش، بالإضافة إلى قدرتك الرائعة على إضحاك الجماهير، هذا غير قدرتك الرائعة على العزف بكرات التنس.

قال «آرثر» في أسف: أما زلت تذكر يا صديقي هذه الأيام الخوالي؟ قالت «ماري» باسمة: ومن يستطيع أن ينساها؟ لقد كان السيرك يضج بالتصفيق عندما تنهي فقرتك هذه يا عزيزي.

قال «آرثر»: ليت «جون» يسمعكما، إنه لا يعجبه عملي كمهرج، ويريدني أن أعمل في شركة يملكها أحد آباء أصدقائه.

قال له «رامون» في دهشة: وماذا ستعمل بها؟!

قال «آرثر»: بالتأكيد وظيفة بسيطة، لكنه يراها أفضل من عملي في السيرك، فهو يخجل من أن يصارح أصدقاءه بأن أباه مهرج.

قال له «رامون» في أسف: هذا ما نجنيه من أبنائنا، نحن نضيع عمرنا لأجلهم، وهم لا يقدرون ما نفعله من أجلهم، لكن يا صديقي هذه سنة الحياة.

وودعاه وذهب كل منهما إلى غرفته، وعاد «آرثر» إلى غرفته ليجد ابنه «جون» قد غلبه النعاس، فقام بتدثيره بالغطاء، وقبَّل جبهته، ونام بجانبه.

ومرت الأيام ولم يفتح الموضوع بينهما مرة أخرى، ومر أسبوع والآخر، وفي يوم وجد «آرثر» «جون» يجلس متجهما.

فسأله «آرثر»: ماذا بك؟

قال له «جون»: لقد أقاموا رحلة في المدرسة إلى السيرك، وموعدها في نهاية الشهر.

قال له «آرثر» في حذر: وما المشكلة؟!
قال له «جون»: المشكلة أنهم قادمون إلى هنا، الرحلة إلى سيرك بارني، السيرك الذي يعمل به والدي.. المهرج..
قال له «آرثر»: أنت لا يعجبك عمل والدك، ولا تريد أن يعرف أصدقاؤك أن والدك مهرج، والدك الذي قضى عمره بجانبك ليرعاك، بعد أن توفيت والدتك وهي تلدك، أنت لا تعلم أني لم أكن مهرجا يوم وُلدت أنت، لكني كنت نجما لامعا في هذا السيرك الذي لم يكن يومها كما الحال الآن..
كنت وقتها نجما لامعا في هذا السيرك، كانوا يسمونني الفنان «آرثر»، كنت أقدم فقرة نادرة لم يكن أحد يستطيع أن يفعلها غيري، وعبر سنوات طوال حاولت أن أعلمها للكثيرين إلا أن أحدا لم يستطع أن يتقنها مثلي.
سأله «جون» في فضول: أي لعبة هذه؟ ولماذا تركتها؟!
قال له «آرثر»: لقد كنت أعزف على البيانو بكرات التنس..
قال «جون» في خيبة أمل: لقد رأيتك تفعلها من قبل لتصدر بعض النغمات المتناسقة القصيرة.
قال له «آرثر» وقد لاحظ تعبيرات وجهه: لا، أنت لم تر شيئا حقا، هذا الذي تراه فقرة فكاهية، فيما سبق كنت أعزف حقا مقطوعات كاملة من الموسيقى العالمية، أنت لا تتخيل.
انتاب «آرثر» الحماس وهو يحكي لابنه عن التصفيق الحاد للجمهور، والهتاف من الجماهير له ليستمر في العزف والإبداع، لقد كان الأمر في بعض الأوقات يصل إلى خمس عشرة دقيقة من العزف المستمر بهذه الطريقة.
كان جون يستمع إلى كلام والده وقد انتابه الحماس لما يسمعه منه، وسأله: لكن لماذا يا أبي تركت كل هذا وعملت مهرجًا؟!
فأجابه «آرثر» في حزن: أمر خارج عن إرادتي.. في يوم ما، منذ اثني عشر

عاما، كنت أؤدي فقرتي وكان الجمهور يهتف، وأنا أؤدي في سرعة عالية شعرت بألم قوي يعتصر صدري، وأظلمت الدنيا من أمامي، وسقطت فاقدا للوعي، وحين حضر الطبيب وأفقت أخبرني أنني أعاني قصورًا في الشريان التاجي، وأخبرني أنني لن أستطيع أن أعيد أداء فقرتي هذه مرة أخرى..

فسألته: لماذا؟!

فأفادني بأن «هذه الفقرة تستلزم مجهودا كبيرا وتركيزا شديدا، مما يضغط على عضلة قلبك وقد تودي بحياتك».. وبعدها اضطررت آسفا أن أتوقف عن أداء فقرتي، ولأنك تعلم أن السيرك ليس شركة وليس هناك معاش مبكر، كان لا بد لي من أن أعمل لكي أعيش، ولكي أستطيع أن أربيك، ولقد اخترت أن أعمل مهرجا، أفضل من العمل في إطعام الحيوانات في السيرك، وقضيت وقتا وأنا أعمل مع «براون»، مدرب الوحوش، لكي أستطيع التقرب إليها وأقدم فقرتي الفكاهية معها، و«رامون» هو الذي علمني كيف أسدد الخناجر، وهذه إحدى النقاط التي تريك أن أباك ليس مجرد مهرج؛ فكل مهارة من تلك المهارات قد تحتاج من آخرين إلى عمر بأكمله لتعلمها.

وابتسم «آرثر» قائلا: وها أنا الآن كما تراني.. مهرج.

قام «جون» واحتضن والده وهو يقول له في أسف: آسف يا أبي، أعلم أني أغضبتك بكلامي، لكني كنت أتمنى أن أكون كبيرا عندما كنت تستطيع أن تقدم فقرتك هذه، كنت أتمنى أن أريك لكل أصدقائي، وأقول لهم: هذا الفنان هو أبي، لكني لن أخجل من عملك أبدا بعد الآن.. سامحني يا أبي.

احتضنه والده في حنان، وهو يربت على كتفه قائلا: لست غاضبا منك يا بني، وأعدك أنني سأشرفك حقا أمام أصدقائك، ولتعلم أن أباك سيريهم عرضا نادرا، عرضا لن ينسوه أبدا..

سأله «جون» في دهشة: ماذا تعني؟!

قال له والده في غموض: دعها لوقتها، ما زال أمامنا أسبوعان على العرض،

لا تقلق ودع الأمر لي.
وفي اليوم التالي ذهب إلى مدير السيرك، وأخبره أنه ينوي أن يعود إلى تقديم عرضه القديم مرة أخرى.
رفض مدير السيرك في البداية هذا الأمر. وقال لـ«آرثر» إن هذا الأمر خطير على حياته، وهو لن يقبل. وترجاه «آرثر» أن يوافق على أدائه للعرض، ولو لمرة واحدة، شرح له كل ملابسات الأمر، ووعده ألا يطيل كما كان يفعل في السابق.
بعد تردد وافق مدير السيرك، لكنه طلب من «آرثر» أنه إذا أحس بأي تعب أن يوقف العرض في الحال، ولا يجهد نفسه في المران أكثر من اللازم.
وافقه «آرثر»، وظل في الأيام التالية يذهب إلى غرفة رامون صديقه؛ فقد كان يريد أن تكون المفاجأة لابنه كاملة، ويتدرب عنده على العزف بالكرات كما كان يفعل في الماضي.
سنوات وسنوات مضت من دون مران أضعفت قدراته وسرعة يديه، لكنه كان يتمرن كثيرا، على فترات متقطعة، لكي لا يتعب.
كان «رامون» يراقبه في إشفاق، لكنه كان يشعر بما يشعر به، ويعلم أنه يتمنى أن يفعلها مرة أخرى ولو لمرة واحدة في حياته ليراه ابنه ويفخر به أمام أصدقائه، كان يكفيه أن يرى نظرة الرضا في عينيه قبل أن يموت.
وفي اليوم الموعود، ارتدى «آرثر» زي الموسيقار الذي كان يرتديه دائما في عرضه في السابق، ولأول مرة منذ اثني عشر عاما لا يؤدي دور المهرج، وإنما كان «جاك» يؤديه وحده، وعندما أتى دوره قدمه جاك قائلا:
والآن.. مع أقوى عازف بيانو في العالم.. مع الفنان «آرثر».. اليوم يعود إليكم بعد انقطاع دام أكثر من اثني عشر عاما.. يعود إليكم بعرضه المستحيل.. الموسيقار سيقدم لكم «هافا ناجيلا» على البيانو.. ولكن بطريقة مميزة جدا.. أعدكم أنكم لن تنسوا هذا العرض أبدا..

وأُطفئت الأنوار، وتسلطت بقعة من الضوء على «آرثر» وهو يخرج وأمامه اثنان يحملان «أورج» كبيرا ويضعانه على الأرض ويتقدم وهو يمسك في يده خمس كرات من التنس، وارتفع التصفيق ونظر «آرثر» إلى «جون» ابنه الذي كان يجلس في الصفوف الأمامية مبهورا، وقد عرف أن والده سيريه العرض الذي كان يتمنى أن يراه..

وبدأ «آرثر» يعزف «سوناتا ضوء القمر» لـ«بيتهوفن» بكرات التنس على البيانو، التي يقذفها على أصابع البيانو بسرعة ومهارة لتخرج النغمات في وضوح كأنما يعزفها فنان جالس على مقعده أمام البيانو ويعزف بأصابعه..

ارتفع تصفيق الجمهور بعد انتهائه من عزف السوناتا، وحيَّاهم وانتظر حتى هدأ التصفيق، وبدأ يعزف الـ«هافا ناجيلا» في هدوء في البداية، ثم تعالى إيقاعه في سرعة وأصبحت لا ترى يديه من فرط سرعته في إلقاء الكرات التي لم تفلت منها أي كرة وإيقاعه يتعالى، والهتاف يتعالى، واحتد التصفيق، والناس لا تصدق هذه السرعة والروعة في الأداء..

كان «جون» فرحا بوالده للغاية، وزملاؤه يقولون له: إن أباك فنان رائع..

كان يراقب ملامح والده، وكان يشعر بالقلق وهو يرى وجه والده يحتقن مع السرعة والمجهود الذي يبذله، إلا أنه لا يستطيع التوقف حتى إنهائها، ورفع يده محييا الجمهور الذي التهبت أكفه بالتصفيق من روعة العرض.

كان «آرثر» يشعر أن قلبه يخفق بقوة، إلا أنه تماسك حتى أُطفئت الأنوار، وخرج يجر ساقيه، استقبله «رامون» الذي عاونه على الجلوس وهو يفك أزرار قميصه وهو يقول له: لقد كنت رائعا يا صديقي بل أكثر من رائع، لقد تفوقت على نفسك..

قال «آرثر» لاهثا: لقد أردت أن أثبت لابني أن أباه ليس مجرد مهرج، وأن أباه فنان.. أردت أن أجعله يفخر بي أمام أصدقائه..

قال له «رامون»: ما كان لك أن تجهد نفسك هكذا يا صديقي، عليك أن

ترتاح الآن، وستكون بخير.
«آرثر»: لا بأس يا صديقي، لقد قدم المهرج عرضه الأخير، وآن له الأوان أن يستريح الآن.. وأغمض عينيه باسما ونام وهو ما زال يسمع تصفيق الجمهور يدوي في أذنيه في قوة.. فلئن مات الآن فسيموت وهو راضٍ وقد شعر أنه قد قدم عرضه الأخير، بنجاح.

obeikan.com

الحكاية الرابعة
حدث في طاجستان

استيقظ الزعيم بباوي من نومه في الصباح، وخرج إلى ردهة قصره، ووقف في الشرفة يتطلع إلى قرص الشمس، ويستنشق الهواء النقي وهو يقول لنفسه: يا له من يوم مجيد.

ووصل إلى مسامعه صوت طلقات رصاص يأتي من بعيد، فزفر في ضيق ودخل إلى مكتبه واتصل بوزيره وطلب منه الحضور فورا، وفور وصول الوزير سأله: ما أخبار الميدان؟ أما زال المخربون يعتصمون به؟!

قال وزيره باسما: لا تقلق يا سيدي، بشأن هؤلاء المخربين، كل شيء تحت السيطرة.

قال بباوي: لكني أسمع صوت طلقات نارية!

قال له: لا داعي للقلق يا سيدي، إنهم بعض رجالنا المتنكرين يقومون بإرهابهم في الميدان.

بباوي: هل حرصت أثناء اختيارهم على إحضار وجوه غير معروفة؟ لا نريد أن نثير حفيظة الدول المجاورة لو اكتشفوا أنهم من رجالنا.. أنت تعلم أن لنا مصالح معهم، وهؤلاء الحمقى الذين ينادون بحقوق الإنسان..

الوزير في نفاق واضح: لا تقلق يا زعيم.. كل شيء يسير كما يجب، إن هؤلاء المخربين ما هم إلا قلة مندسة، ولا يستحقون القلق، الأمن مستتب والشعب سعيد، وهو يريدك وسعيد بسياستكم المجيدة في إدارة شئون البلاد.

ازداد البِشر على وجه بباوي وهو يستمع إلى وزيره في سعادة.. وفي الوقت نفسه كان الثوار يعدون في كل اتجاه في الميدان وهم يحملون مصابيهم إلى ركن في الميدان، حيث أقاموا مستشفى ميدانيا صغيرا .

كان من ضمن المصابين: «أحمد»، الذي فقد إحدى عينيه نتيجة شظية أصابته وهو في الميدان، وفي المساء حين ساد الهدوء بعد رحيل البلطجية، أو قوات الأمن المتنكرة، وهو جالس بجانب أصدقائه الثوار، كان أحمد جالسا وسط أصدقائه حين قال له ماهر: علينا الرحيل والعودة إلى منازلنا، ليس لوجودنا هنا فائدة مرجوة.

نظر إليه أصدقاؤه في دهشة. قال له أحمد في دهشة: ماهر.. ماذا تقول؟!

قال ماهر في غضب مكتوم: أقول الحقيقة، كل يوم يسقط منا مصابون، واليوم أنت فقدت عينك، وغدا قد أفقد حياتي، فلماذا كل هذا؟!

قال خالد له: لأجل مستقبل بلدنا.. لأجل أولادنا.. لأجل كل ما نحب في هذا البلد.. لأجل حقوقنا المسلوبة.

قال ماهر: وماذا سنستفيد إن متنا هنا؟!

رد عليه أحمد: سيعيش أولادنا على الأقل في سلام، في حياة أفضل.. سنكون درجة يطؤها أولادنا من بعدنا ليصلوا إلى القمة، ليعيشوا حياة أفضل، لكي لا يكونوا مثلنا.. هل يعجبك حالك أو حالي أو حال خالد؟ نحن نعمل هذا لأجل وطننا الذي يعيش فيه أولادنا وأهلونا وجيراننا، وكل الناس الذين نحبهم.. إن لم نحيَ نحن فيه فعلى الأقل نكون قد ساعدنا القادمين ليحيوا في وطن أفضل.

قال ماهر في حزن: أنا آسف يا رفاق، إنما هو حزني على ما أصاب أحمد وعلى من يسقطون منا كل يوم، ولا أرى أي نتيجة لما نفعله، حتى أهلنا وجيراننا الذين نسعى لأجل حياتهم في وطن أفضل ونموت في سبيلهم لا يصدقون ما نقوم به، ولا يساندوننا، ويتركوننا نموت هنا، وفي النهاية نحن

من يطلق علينا البلطجية الذين يريدون خراب البلد.
قال له أحمد: إنهم لا يعلمون اليوم، لكن غدا سيعلمون، وسيعلمون قيمة تضحيتنا من أجلهم، ومن أجل وطننا، إنهم ضحايا يا صديقي، ضحايا النظام الفاسد، ضحايا سنوات من القهر التي علَّمتهم أن هذه الحياة هي أفضل حياة ممكنة، ضحية الإعلام الفاسد الذي لا يريهم إلا ما تريده السلطة فقط.
قال خالد: كلنا لا يوجد لنا مستقبل يا صديقي في طاجستان إن ظلت بهذا الحال، أنت أنهيت دراستك منذ سنوات ولم تستطع الحصول إلا على عمل بسيط على الرغم من شهادتك، أهذه هي الحياة التي تتمناها لأولادك من بعدك؟ أتريدهم أن يكونوا مثلك؟!
قال ماهر في سخرية مريرة: وأين هم أولادي في ظل هذه الأزمات المتلاحقة؟! الراتب لا يكفي لشيء، الحياة في غلاء مستمر، والراتب كما هو، كل شيء في طاجستان يرتفع إلا قيمة الإنسان، هي التي تقل.
قال أحمد: لهذا يجب أن نثور.. وكما يقول الشاعر الكبير:
اغضب فإن الله لم يخلق شعوبا تستكين
اغضب فإن الأرض تحني رأسها للغاضبين
اغضب ستلقى الأرض بركانا
ويغدو صوتك الدامي نشيد المُتعبين
قال أحمد: لا تيأس يا صديقي، فإن الغد أفضل.. لا تقلق، غدا العالم كله سيستمع إلينا، وكل الناس الذين اتهمونا أمس بأننا بلطجية غدا سيفخرون بنا حين يعلمون أن كل ما نفعله هذا من أجلهم ومن أجل وطننا الذي نحبه.
ظلوا يتكلمون ويتناقشون في مستقبل طاجستان، ثم طلب أحمد من ماهر اصطحابه إلى الخارج، إلى قلب الميدان، حيث يجتمع الثوار، أراد ماهر

إقناعه بأن يخلد إلى الراحة، إلا أن أحمد كان مُصرًّا. فاصطحبه وخرجا من الخيمة، وسارا معا إلى الميدان حيث استقبلهما زملاؤهما بالترحاب، وهم يهنئون أحمد على سلامته.

وبينما هم يتكلمون سمعوا صوت رصاصات متفرقة من مبنى مواجه للميدان، أصابت أحمد رصاصة في صدره فسقط أرضا، وتفرق الثوار وهم يعدون في كل اتجاه يحاولون الاحتماء من الطلقات المتفرقة المنهمرة من الأعلى، وهتف أحدهم: هؤلاء قناصة النظام الفاسد، إنهم يطلقون علينا من أعلى المبنى.. احتموا يا رجال.

أسرع ماهر يحمل أحمد الذي ينزف صدره بغزارة، وهو يعدو به إلى طرف الميدان بعيدا عن الضرب، وهو يناشده التماسك، حتى وصلا إلى الخيمة التي بها المسعفون وأسرع أحدهم ليكشف على إصابة أحمد ويحاول أن يضمد الجرح. قال ماهر لأحمد دامعا: لا تقلق يا صديقي، ستكون بخير.

قال أحمد في ضعف، وهو يمسك يد صديقه: لا يا صديقي، لقد نال مني هؤلاء الأوغاد، أنا أشعر أني أموت، ولكن أوصيك يا صديقي ببلدنا وثورتنا، لا تضيِّع دمي هباء، أوصيك خيرا ببلدنا، وأخبر أولادي أنني مت لكي يحيوا هم، ويحيا بلدنا.

قال له ماهر وهو يبكي: أعدك يا صديقي.. أعدك. فضغط أحمد على يده في ضعف ثم تراخت يده وأغلق عينيه في هدوء، وأسلم الروح، فاحتضنه ماهر وهو يبكي ويقول له: لا يا صديقي، لا تتركنا الآن، لا ترحل ليس قبل أن ترى وطنك كما تمنيته، وشرع أصدقاؤهم يحملونه بعيدا عنه، وهم يعزونه.

وجلسوا حتى الصباح يقظين. قال ماهر: لا بد أن يعلم الجميع أن الذي يحدث هنا في طاجستان يجب أن يصل إلى الجميع، اليوم فقدنا ثلاثين شخصا في هذا الهجوم الغاشم وفي الغد يقتلون آخرين، لقد يئسوا من

سياسة التفرقة، ويريدوننا أن نصمت بأي شكل، ولكننا لن نصمت، يجب أن يصل صوتنا للجميع.

الآن نخرج بجنازة شهدائنا من الميدان، وكلنا خلفهم حتى المقابر، لا بد أن يرى الناس ما يدور في الحقيقة، لا ما يريهم إياه الحكام، اليوم نحن عشرة آلاف، غدا نكون مائة ألف، وبعد غد ستكون طاجستان كلها خلفنا.

خرجوا من الميدان وهم يحملون لافتات كبيرة مكتوبا عليها أسماء شهداء الميدان، وصورهم، وطافوا بها البلدة وهم في طريقهم إلى المقابر في أطراف المدينة، وكانوا كلما مروا بمنطقة انضم إليهم المزيد من الناس وهم يتساءلون عن سبب وفاة كل هؤلاء الشباب صغيري السن.

وكان الثوار يشرحون لهم ما حدث وما زال يحدث في الميدان، والأعداد تزداد، والهتافات تزداد: «يسقط يسقط حكم الظالم»، يسقط يسقط حكم بباوي»، وانطلقت المسيرة الحاشدة إلى قصر بباوي، والبلد كلها تسير في أثرهم، حتى وصلوا إلى هناك.

كان بباوي جالسا مع مندوب دولة كبرى، يتناقشان في مشاريع مشتركة، وكان المندوب يبدي قلقه من الأحوال في البلاد، إلا أن بباوي كان يطمئنه إلى أن الأمور مستقرة، وأن بعض المخربين فقط يعتصمون في الميدان، وهم قلة مندسة، لكن قوات الأمن ستعمل على تفريقهم، والأمن مستقر ولا يوجد ما يدعو للقلق.

وأثناء نقاشهم، تعالى صوت هتافات تنادي بإسقاط الزعيم الظالم، ودخل الوزير وهو ممتقع الوجه ليقول للزعيم: ثورة يا زعيم، البلد كلها تهتف، وتحيط بالقصر وتحاول اقتحامه، وقوات الأمن لا تستطيع دحرهم، سيدخلون إلى القصر. وتعالى الهتاف ودوى صوت بضع طلقات، إلا أن الثوار أخذوا الأسلحة من الحرس واقتحموا القصر، وألقوا القبض على بباوي ووزيره وكل حاشيته وألقوا بهم في السجن حتى تتم محاكمتهم،

وتم تعيين مجلس مؤقت من الثوار، حتى تتم إجراءات انتخابات صحيحة وعادلة، ليحكم البلاد أشخاص عادلون لمستقبل أفضل لبلدهم، وذهب ماهر إلى منزل أحمد ليعزي زوجته ويخبرها أن تضحية أحمد وكل من ماتوا لم تضِع هباء، لم تضِع هباء أبدا، فكل هؤلاء الشهداء الذين ماتوا، والذين أصيبوا، والذين فقدوا عيونهم، ضحُّوا لأجل وطنهم، وماتوا لكي تحيوا أنتم، لكي يكون وطنكم لكم كما تحلمون به، ولكي لا يسرق أحد منكم أحلامكم.

opeikan.com

الحكاية الخامسة
ذكرى «الفلانتين»

استيقظت من نومي في الصباح، ولم يكن لديَّ عمل، كان اليوم إجازة، تناولت إفطاري وقرأت الجرائد، لأعلم ما آخر الأخبار، ثم جلست على حاسوبي لأفتح الـ«فيس بوك»، فوجدته مليئا بالتهاني؛ فاليوم عيد الحب.. عيد الحب، يا له من يوم مميز في حياة الكثيرين، من منا ليس له ذكرى مع عيد الحب، حتى لو كانت مرة في العمر؟! أغلقت الحاسوب، وقمت بإحضار كرسي وصعدت فوقه لأُحضر صندوقا ورقيا أضعه فوق خزانة ملابسي، أنزلته وفتحته وكان به أشياء غالية القيمة جدا بالنسبة لي أنا على الأقل..

كان به هدايا، أتت لي في مناسبات مختلفة، عبر سني عمري الثلاثين، لكنني تركت كل ما في الصندوق وأخرجت إطارا صغيرا به صورة مشتركة لي مع نرمين، كان الإطار ينقسم إلى ٣ أجزاء بالعرض، الجزء الأول به آلة موسيقية صغيرة بـ«زمبلك» تعزف مقطوعة رومانسية غاية في الجمال، الجزء الثاني به مكان لصورة وضعت بها صورتنا معا، الجزء الثالث مكتوب عليه إهداء رقيق بالإنجليزية..

أدرت الموسيقى الخاصة بالبرواز، وجلست أتأمل في الصورة وأنا أشرد بذاكرتي إلى أول مرة التقينا، كان هذا منذ زمن طويل، كنت قد أنهيت دراستي الثانوية، وكنت في إجازة مصيف مع العائلة، ورأيتها عند صديق للعائلة هناك، خفق قلبي عند رؤيتها، وكانت أول مرة أشعر بهذه

الخفقات بين ضلوعي..

كانت جميلة كأجمل أحلامي، رقيقة مثل نسمة صباح، تعارفنا وتحدثنا كثيرا، والتقينا عدة مرات وشعرت أنها تميل إليَّ مثلما أميل إليها، مضى أسبوع المصيف وكأنه حلم جميل سرعان ما انتهى، تبادلنا أرقام الهواتف قبل الرحيل، وعلى وعد بلقاء حين تنزل إلى القاهرة، أو حين آتي أنا إلى الإسكندرية..

تحدثنا كثيرا على الهاتف، كانت تشعر بالراحة حين تتحدث معي، وعلمت عنها الكثير، وحكيت لها الكثير عني، وبعد ٣ أشهر أخبرتني أنها قادمة إلى القاهرة لشراء فستان سهرة لفرح صديقة مقربة لها، فرحت جدا عند سماعي الخبر، ووعدتها بانتظارها في محطة القطار في اليوم المنتظر..

وفي يومها استيقظت قبل موعد وصولها بـ٣ ساعات، لأذهب لأهذب شعري وذقني وأرتدي أفضل ثيابي وأنتظرها.. قبل موعدها بساعة كنت في المحطة أنتظر وأنا أنقل ساقا محل ساق، كأب ينتظر مولوده الأول قلقا أمام غرفة العمليات، كنت متشوقا للغاية لرؤيتها، ومضت الساعة في تثاقل شديد، وأخيرا وصل القطار، ووقفت أنقل بصري بين الركاب الذين ينزلون من القطار، حتى رأيتها تلوح لي من خلف زجاج العربة وقد رأتني..

هرعت إلى الباب أنتظرها، وأنا كل لمحة من ملامحي تنطق بالسعادة، ورأيتها تتعثر وهي تنزل من باب القطار في حقيبة صغيرة يحملها راكب آخر ينزل أمامها من القطار، عدوت ناحية الباب لأحاول أن أمسك بها قبل أن تسقط، على الرغم من بعد المسافة فإني نجحت في الوصول إليها في الوقت المناسب لأتلقفها بين ذراعيَّ قبل أن تسقط أرضا..

ساعدتها على الاعتدال، وسألتها إن كانت بخير..

نظرت إليَّ في امتنان، وقالت لي: كيف لا أكون بخير وأنت بجانبي؟

انتابني إحساس هومزيج من الفرحة والخجل، صافحتها في سعادة وأخبرتها

أنها ازدادت جمالا منذ آخر مرة التقينا منذ شهور، وانطلقنا سويا نتجول في شوارع القاهرة، وهي تدخل إلى المحل تلو الآخر، وتجرب وترى الأثواب، وتأخذ رأيي، واستقرت بعد طول بحث على ثوبَي سهرة، فاشترتهما، واصطحبتها لنتناول طعام الغداء في أحد المطاعم..

أخذنا نتحدث عن الحياة والمستقبل والعمل وما خططي للحياة.. كنت شابا مفعما بالحياة والأمل، وكنت أعتقد أن الغد يحمل لنا كل شيء سار، ولم أكن اعلم أن المشوار طويل هكذا، وأنهينا غداءنا وأوصلتها إلى المحطة، ووقفت معها حتى ركبت القطار، ولوحت لها مودعا، وعدت إلى منزلي وأنا مفعم بالأمل والحب والسعادة..

مضت شهور ونحن نتبادل الأحاديث الهاتفية، ولم نلتقِ بعدها لفترة طويلة، لم أشعر أن مشاعرها تخبو من ناحيتي، لم أشعر أن جذوة الحب لم تعد متقدة، وأنها مع الوقت أصبحت تشع القليل من الدفء الذي يكفي للحفاظ على صداقة بيننا، وليس عليَّ أن أطمع في أكثر من هذا..

وكان يوافق يوم عيد ميلادها نفس يوم عيد الحب، واتصلت بها قبلها بعدة أيام، وتحدثنا، وكانت حزينة لأن والديها رفضا أن يحتفلا بعيد ميلادها؛ لأن أخاها لديه امتحانات، تحدثت إليها وقلت لها يمكنني الحضور إليك من الصباح الباكر، ونقضي اليوم معا ونحتفل بعيد ميلادك معا، ما رأيك؟ رحبت بالفكرة، وأخبرتني أنه لا مانع عندها، وفي اليوم السابق ليلا اتصلت بها لأخبرها أنني قادم إليها، إلا أنها لم ترد، فقلت إنها نائمة، وقلت لنفسي لأذهب وأحجز من اليوم أفضل، حتى لا أفاجأ في الصباح بعدم وجود قطارات..

وذهبت إلى المحطة في التاسعة مساء، لأحجز في القطار، ووجدت قطار الغد الساعة السابعة لا يوجد به حجز، وأقرب قطار بعده يقوم في التاسعة، سألت إن كان هناك حجز اليوم، أخبرني الموظف أن القطار المكيف سيقلع

في العاشرة والنصف، فكرت أني لن ألحق به لأنني أريد الذهاب وشراء هدية لها والعودة، وسألته إن كانت هناك قطارات أخرى، قال إن هناك قطارا غير مكيف يقوم في الثالثة صباحا، قلت: لا بأس، المسافة ليست طويلة..

عدت وفي طريقي عرجت على أحد المحلات لأشتري لها هدية، ووجدت هذا البرواز الذي لفت نظري، فاشتريته ووضعته في حقيبة هدايا، واشتريت بطاقة صغيرة للتهنئة، ووضعتها مع البرواز، وعدت إلى منزلي؛ حيث أعددت حقيبتي الصغيرة، وانطلقت إلى المحطة؛ حيث استقللت قطار الثالثة صباحا، الذي لم أجد له حجزا في الشباك، وقال لي الموظف وعلى وجهه بسمة غريبة: الحجز من الداخل يا سيد..

وفهمت معنى ابتسامته حين ذهبت إلى القطار.. لقد كان قطارا من قطارات الدرجة السابعة (إن كان يوجد شيء كهذا)، وعلى ما أذكر يسمونه القشاش(مكيف ترابي).. قطار متداعٍ، لا توجد به نافذة سليمة، مفتوح من جميع الجهات، فأبوابه غير موجودة، ومزدحم للغاية وتذكرته سعرها قريب من سعر تذكرة الأتوبيس المكيف، والحجز من الداخل لأنه لا بد من أولوية الحجز بالمقعد..

المهم بعد رحلة ممتعة في هذا الجو المميز والزحام البسيط (كل٣على مقعد)، والسرعة الفائقة (وصل الساعة السابعة والنصف) وصلت أخيرا إلى الإسكندرية، وحمدت الله أن البرواز لم يتحطم، لكن الحقيبة التي كانت تحتويه لم تعد صالحة، فألقيتها واشتريت غيرها في طريقي إلى المنزل في الإسكندرية، واتصلت بها ولم ترد، فقلت إنها لا بد نائمة.. سأرتاح قليلا وعندما أستيقظ سوف أحدثها..

ونمت فاستيقظت في الساعة الرابعة عصرًا، وقلت لنفسي: لقد ضاع اليوم في النوم، وكان في ذهني أن أقضيه معها منذ الصباح، ألقيت نظرة على

هاتفي، لعلها تكون رأت مكالمتي حين استيقظت واتصلت بي، إلا أنني لم أجد منها أي شيء، اتصلت بها، وبعد رنين طويل ردت أخيرا، فقلت لها إنني أتيت إلى الإسكندرية منذ الصباح، واتصلت بها إلا أنها لم ترد..

اعتذرت لي، إنها كانت نائمة، فقلت لها إنني أود أن ألقاها لنحتفل معا، لقد أتيت على موعدنا..

اعتذرت لي لأنها مع أصدقائها في منزل إحدى صديقاتها، وأنهم يحتفلون بعيد ميلادها، وأنني لم أؤكد عليها بالأمس أنني قادم، وأنها لم تكن تعرف، ولا تستطيع أن تتركهم..

تقبلت الأمر في بساطة، ولم أُرِد أن أعطيه أكبر من حجمه، ما المشكلة في سفري ومجيئي خصيصا إليها ولا تستطيع أن تحتفل معي؟ قلت لها: هل تقابلينني في الغد إذًا لنحتفل معا؟

قالت لي في عجل: بالتأكيد، سنلتقي غدا، والآن إلى اللقاء، فأنا لا أستطيع الكلام وهم بجانبي.. وأنهت المكالمة..

لم أشعر بشيء غير طبيعي، فكما يقولون: «مراية الحب عامية».. نزلت وجلست على البحر قليلا، وقضيت اليوم أتجول في الإسكندرية التي كنت أعشقها في هذا الوقت، فيكفي أنني فيها التقيت حبي الأول، وعدت في المساء ونمت.. في الصباح التالي اتصلت بها ولم ترد، وحاولت على مدار اليوم، ولم ترد على اتصالي، واضطررت في نهاية اليوم الثاني إلى العودة إلى القاهرة، من دون أن ألتقيها..

وفي القاهرة جاءتني منها رسالة تعتذر فيها عن عدم استطاعتها مقابلتي، وشرحت لي بها ما كان خافيا عني من تغيير تصرفاتها، قالت لي إنها تعتز كثيرا بصداقتنا التي دامت لفترة قصيرة، إلا أنها لن تنساها، ولكن تقدم طبيب لخطبتها، ولقد وافق أهلها على خطبتها، وهي أيضا وافقت..

وقالت كلاما كثيرا عن الصداقة التي هي أفضل من أي شيء، وأنها هي

التي تدوم، واعتذرت عن عدم قدرتها على لقائي، لكنها كانت مع خطيبها يوم عيد ميلادها.. أما عن عدم إعلامي بكل هذا من قبل، فقد كان عذرها أن الأمر كان ما زال قيد المناقشات، ولم يكن هناك اتفاق فعلي على شيء، لكن الآن أصبح هناك كلام رسمي، وهو أتى بالفعل وتحدث مع أهلها وتحدد موعد الخطبة..

وعندما أرسلت لها أسألها: صداقتنا؟

أكل ما مضى كان في نظرك مجرد صداقة؟ لست أصدق أن مشاعري خدعتني لهذه الدرجة، على كل حال أتمنى لكِ السعادة مع من اختاره قلبك، وآسف على كل شيء أنا افترضته وتصرفت على أساسه، يبدو أن القلب يخطئ أحيانا، وآسف على أي حرج قد أكون سببته لكِ، شكرا على الوقت الجميل، شكرا على الحلم الجميل، شكرا على أيام مضت، أتمنى لكِ السعادة يا عزيزتي، ولا أعتقد أنه من اللائق أن يكون لكِ أصدقاء بعد خطبتك.. أعدك ألا أزعجك مرة أخرى..

أرسلت لي رسالتها الأخيرة تقول لي فيها: دعني أصارحك سرا أن قلبك لم يخطئ تماما، أنت إنسان جميل، وأنا أعجبت بك، وكنت قد بدأت أتعلق بك، ولكن اعذرني يا صديقي، الحياة لا تُبنى على الحب فقط، لكن هناك أشياء أخرى، من دون الدخول في تفاصيل، سوف تؤلم كلا منا، أريدك ألا تغضب مني وتذكرني بالخير دائما، وأنا أعتقد أنك فهمت ما أقصد، أتمنى لك السعادة مع من يختارها قلبك وعقلك معا، فمن يختارها عقلك وقلبك معا ستكون هي اختيارك الصحيح.

صديقتك نرمين..

ومن يومها لم أرَها مرة أخرى، لكنني ما زلت محتفظًا بالبرواز الذي أحضرته لها ولم نلتقِ لأعطيها إياه، وأتذكرها كل عيد حب، تعود إليَّ ذكرى هذا اليوم؛ حيث إنني لم أرتبط، على الرغم من مرور أكثر من ١٠ أعوام

على هذا الموقف، إلا أن رسالتها وصلت إليَّ كاملة، ولم أرد أن أنكأ جرحي من جديد بحب جديد بلا أمل، على الأقل في الوقت الحالي؛ فالزواج لن يكون بالحب وحده..

دائما ما كنت أقول لها: إن الغد يحمل لنا كل شيء، غدا سأتزوج من أحب، غدا سأكون غنيا، غدا سأكون أسعد رجل في العالم، لكن متى يأتي هذا الغد؟ لا أعلم أنا فقط أنتظر وآمل أن يأتي، وكل عيد حب أقول لنفسي: لست وحدك يا صديقي، لست وحدك..

obeikan.com

الجزء الثاني
عن الخيال نحكي

obeikan.com

الإعصار

- ١ -

تعالى هتاف ناردي وهي تنادي على وتتعجلنى للرحيل، وحين تأخرت حضرت إلي، ووجدتنى في مكتبى أدخل أوراقا إلى حاسبى النقال عن طريق الماسح الضوئي، فقالت لى هيا: يا عماد سنتأخر.

فقلت لها اذهبي أنتِ يا ناردي، وخذي الأولاد معك وأنا سأتبعكم، قالت لي: لا، سننتظرك ونذهب معا.. قلت لها: اذهبي يا ناردي أرجوكِ حتى تلحقوا الحافلة المغادرة، أنا سأذهب أولا إلى مكتب ناسا لأسلم بعض الأوراق المهمة..

فقالت لى ناردي في عصبية: لم يعد أحد هنا، الكل رحلوا، وآخر طائرة مغادرة ستقلع بعد ساعة واحدة، الكل هرب من الإعصار، فابتسمتُ لها وربتُّ على كتفها في حنان، وأنا أضمها إلى صدري قائلا: يا عزيزتي لا تقلقي إن لديَّ عملا يجب عليَّ إنهاؤه، ولكن اذهبوا أنتم أولا لتلحقوا الحافلة، وأنا سألحقكم بالسيارة.

نظرت لي في قلق.. إلا أنني قلت لها: هيا، إن الأولاد ينتظرونك. قالت لي: لا تتأخر. قلت لها: لا تقلقي، وأوصلتها والأولاد إلى الخارج؛ حيث استقلوا الحافلة إلى حيث تنتظرهم الطائرة لتقلع بهم إلى نيوجيرسي، بعيدا عن مجال الإعصار، واطمأنيت على ركوبهم، ودخلت لأكمل عملى في إدخال أوراقى، فقد كنت أأمل في اللحاق بهم سريعا..

فقد كنت اعلم أن الإعصار قادم سريعا، وشردت بذهنى لحظات وانا اتذكر بداية مجيئى انا وناردي إلى أمريكا، حين أتت لأدرس؛ حيث إن المركز الذي وصلت إليه في مصر كمعيد بعيد عن أحلامى التي كانت تفوق

هذا..

فأتت إلى أمريكا للدراسة والعمل، حتى حصلت، بعد إنهاء دراستى، على وظيفة جيدة في «ناسا»، سرعان ما ارتقيت بها لنشاطى وجديتى في مجال عملى ، وعدت إلى مصر في إجازة قصيرة، لآتزوج ناردي واعود بها إلى أمريكا..

فقد بدآت حياتهما هنا منذ عشر سنوات، كانت له فيها نعم الزوجة والرفيقة، وكان ثمرة زواجهما طفليهما الاثنين: جيني وجون، وابتسمت حين تذكرت طفلي الصغيرين، وأفقت من ذكرياتى على صوت الهاتف يدق، فأسرعت ارفع السماعة.. فوجدت المتكلم عالما زميلا لى اسمه سميث في «ناسا»، وقال لى: أما زلت عندك؟ عليك بالرحيل سريعا، الإعصار زادت سرعته.. وهو يقترب في سرعة مخيفة، أسرع بالرحيل..

قلت له : والأوراق البحثية؟

قال لى زميلى سميث: احتفظ بها معك، وعندما نعود بعد انتهاء الإعصار سوف نتسلمها. وأغلقت الهاتف وانا اغلق حاسبى النقال وأأخذه وأذهب في سرعة إلى سيارتى الرابضة في المرأب، واركبها وأنطلق الى حيث تنتظر الطائرة؛ حيث إنها سترحل بآخر فوج من السكان المتبقين خارج المخابئ النووية المصنوعة تحت الأرض للطوارئ؛ حيث إنها لم تكفِ كل سكان الولاية، فعملوا على نقل باقي السكان إلى ولايات أخرى، بعيدة عن مجال الإعصار، الذي لم يُشهد له مثيل منذ قرون، وانطلقت في سرعة في شوارع المدينة التي باتت أشبه بمدينة الأشباح بعد رحيل السكان، والرياح سرعتها تزداد..

وفي الوقت نفسه كانت ناردي والطفلان يجلسون في الطائرة يراقبون الناس القادمين، الذين لم يكن من بينهم زوجها، ثم رأت باب الطائرة يُغلق فأمسكت يد المضيفة وقالت لها في جزع: لماذا تغلقون الباب؟ ما زال باقيا

نصف ساعة؟

غير أن المضيفة ردت عليها في توتر قائلة: لم يعد الانتظار ممكنا يا سيدتي.. لقد وصلت إشارة لقائد الطائرة أن الإعصار يتوجه إلينا وقد زادت سرعته، ولا بد أن نقلع حالا؛ لأن الطائرة غير مجهزة للمناورات، ولو وقعنا في مجاله لن ينجو أحد.

قالت لها ناردي وهي تبكي: لكن زوجي في الطريق، وأنتم بهذا تقضون على آخر أمل له في النجاة. قالت لها المضيفة في أسف: يا سيدتي إن الطريق إلى المطار أصبح مغلقا بسبب الرياح الشديدة وتم إنزال الحواجز، لكي لا تعوق الأشياء المتطايرة الطائرة عن الإقلاع إذا وقعت على ممر الإقلاع.

وفي الوقت نفسه، كنت أحاول التحكم بالسيارة بصعوبة وأنا أتوجه إلى المطار، إلى حيث الطائرة.. وأنا في طريقي إلى المطار لمحت الطائرة تحلق مبتعدة، فعرفت أن الإعصار أجبرهم على الإقلاع المبكر، وأنا أفكر ماذا أفعل وقد رحلوا وتركوني.. فكرت أن أسافر بالسيارة، لكن استسخفت الفكرة؛ فالمسافة بعيده ولن أجد وقودا ولن آمن الطريق إلى هناك، وقررت العودة إلى المخبئ.. أجل، إنها الحل الأسلم وأنا فرد واحد، ومن الممكن أن يجدوا لي مكانا، بالتأكيد توجد أماكن للطوارئ..

واستدرت بالعربة لأنطلق إلى أقرب مخبأ، حين وجدت الإعصار أمامي على بعد عدة كيلومترات، ويقترب في سرعة محطما في طريقه المنازل والسيارات، فانطلقت بلا هدى في الاتجاه العكسي، وأنا أعرف أن الذي أفعله بلا جدوى..

فسرعة الإعصار ٣٠٠ كم في الساعة، أي أنه أسرع من سيارتي بضعف سرعتها، وأنا أضغط على دواسة الوقود بكل قوتي، إلا أنني شعرت بارتجاج العربة يتزايد، وثباتها يقل وأنا أحاول التحكم بها بلا فائدة، حتى شعرت بها ترتفع وتندفع ناحية قلب الإعصار في قوة وشعرت أنها النهاية.

- ٢ -

رأيت السيارة تندفع وهي تدور حول نفسها باتجاه قلب الإعصار، ودخلت الإعصار بقوة ورأيت شرارات تلتمع حول السيارة، وشعرت بألم في كل خلايا جسدي، ورأيت أضواء تلتمع، زرقاء وحمراء، وخُيِّل إليَّ أن السيارة ترتطم بشيء طري كالإسفنج، قبل أن أفقد الوعي..

وأفقت بعدها لأجد نفسي راقدا في سرير طبي، وكل شيء حولي يتسم باللون الأبيض، وثمة ممرضة تقيس نبضي، فمجرد أن فتحت عيني سألتها في ضعف: هل نجوت من الإعصار؟

فنظرت إليَّ في دهشة ولم تجب، وخرجت من الغرفة وتركتني وأنا أفكر كيف نجوت من هذا الإعصار.. ألم تحترق السيارة؟

ورقدت في ضعف أحاول أن أستعيد تركيزي حين دخل الغرفة طبيب ومعه شخص عريض المنكبين يرتدي زيا عسكريا، على الرغم من أن شكل الزي مألوف، فإنني لم أستطع أن أعرف لماذا أشعر أن ثمة شيئا خطأ به، وفحصني الطبيب وهو يسألني عن سني وبعض بياناتي.. فأخبرته، والشخص ذو الزي العسكري يقف يستمع لي في صمت، ثم سأل الطبيب: هل حالته تسمح بالاستجواب؟

فقال له: نعم، لكن لا ترهقه كثيرا. ثم تراجع الطبيب وتقدم الآخر مني وسألني: ماذا حدث؟

فشرعت أحكي له ما حدث، وهو ينظر لي في دهشة حتى انتهيت، وقال لي: هل تعلم فيما أعمل يا رجل؟

قلت له: لا. قال لي: أنا أعمل في «FBI»، ثم مال عليَّ قائلا: هل أخبرك أحد من قبل أن رجال «FBI» أغبياء؟

قلت له في دهشة: بالطبع لا، إنهم على العكس. قال لي في غضب: ما دمت تعلم هذا، لماذا تحاول خداعنا بهذه القصة الساذجة التي ترويها؟

قلت له في دهشة: خداعكم! ولماذا أخدعكم؟!

قال لي الضابط في حنق: إن الإعصار هذا ليس سحابة عابرة.. لو حدث إعصار كهذا الذي تحكي عنه، لكُنَّا على علم به..

فنظرت له في ذهول قائلا: ألم يحدث؟ كيف هذا؟

نظر لي بغضب مكبوت، وقال لي: هناك أشياء كثيرة بخصوصك. وأخرج من جيبه جواز سفر وجلس يقرأ بياناتي منه وأنا صامت حتى قال لي: أهذا صحيح؟

قلت له: أجل.. فقال لي: حسنا، لقد اتصلنا بـ«ناسا» وأحد رجالهم قادم لرؤيتك، على الرغم من أنهم لا يوجد عندهم أي علماء باسمك، إلا أنهم بعثوا أحد رجالهم لرؤيتك، وهو في طريقه إلى هنا، قلت له في دهشة: كيف هذا؟ أنا أعمل في «ناسا» منذ أكثر من ٥ سنوات.. قاطعني قائلا: ليس هذه فقط هي النقطة، أيضا تاريخ إصدار جواز سفرك يعود إلى عام ٢٠٢٥، كيف يكون هذا ونحن ما زلنا في عام ١٩٨٥؟ هل لديك تفسير لحملك جواز سفر بتاريخ يفوق الذي نحيا به بـ٤٠ عاما؟!

فجلست أحدق في وجهه بذهول وأنا عاجز عن النطق.. فالضابط ملامحه أبعد ما تكون عن المزاح، ورأى دهشتي فصمت لحظات، وقال: على العموم ليس هذا كل شيء؛ فنحن نقوم بفحص السيارة التي وجدناك بها هي ومحتوياتها العجيبة، وأرسلنا إلى العنوان المدون في جواز سفرك، وما زلنا نتحرى هذا الأمر..

فجواز السفر أختامه سليمة تماما، على الرغم من التاريخ الغريب المدون به، إلا أن هذا ليس كل شيء، سنلتقي مرة أخرى بعد أن تنتهي الفحوصات، وأعدك أن تحكي لي كل شيء منذ مولدك وحتى مقابلتك لي هنا، فأنت لا

تعرف من أنا. وانصرف من الغرفة غاضبا.. وتركني ذاهلا أحاول التركيز في هذا الذي حدث، كيف عدت إلى الماضي؟ ماذا حدث في قلب الإعصار؟ هل أكون أنا أول عالم يثبت أن ألبرت آينشتين كان محقا في نظريته عن التحرك عبر الزمن؟ ممكن أماما وخلفا إذا وجدنا الطاقة اللازمة لذلك؟

وانتشيت للفكرة لحظات وأنا أحلم بنفسي أتسلم جائزة نوبل في الفيزياء، عن ورقتي البحثية هذه.

غير أنني أفقت من حلمي هذا على خاطر مرعب، ماذا لو ظللت في هذا الزمن؟ زوجتي وولداي، ألن أراهم مرة أخرى؟ وماذا إذا متُّ هنا؟ هل أموت قبل مولدي بـ١٠ سنوات؟

لا، لا يمكن أن أظل هنا.. يجب أن أخرج من هنا.. يجب أن أخرج وأستعيد حاسبي النقال، أحتاج لأن أعيد حساباتي مرة أخرى وأدرس كيف حدث هذا، يجب أن أجد حلا لأعود إلى زمني مرة أخرى، إلا أن الأمر ليس سهلا، هذا يحتاج إمكانات وبحثا لوقت طويل، لست أظن أنني أستطيع أن أجريه وحدي هنا.. وهذا كله بعد أن أُقنعهم أنني آت من مستقبلهم.. وجلست أفكر وأنا أشعر أن رأسي يكاد يشتعل من فرط التفكير، هل سأرى ناردي وولديَّ مرة أخرى؟ هل...؟

- ٣ -

مرت عدة أيام عليَّ في المستشفى، حتى تعافيت وخضعت للعديد من الاختبارات النفسية والكشوف العقلية، ليتأكدوا من أنني لست أهذي، ولست خاضعا لأي عقاقير، وبعد الكشف عليَّ بجهاز كشف الكذب و«بنتوثال الصوديوم»، المعروف بمصل الحقيقة، تأكدوا أنني مؤمن بكل شيء أقوله، ولست أكذب عليهم في شيء..

إلى هنا والأمر كان يدور في دائرة الشرطة، ثم سلموني إلى علماء «ناسا» ليواصلوا تجاربهم معي، وهناك تعرفت على العديد منهم: دكتور كلارك، الذي كان من المؤمنين بقصتي، وكان مقتنعا أن ما حدث معي صدفة عجيبة، إلا أنها ليست مستحيلة، ودارت بيننا جلسات كثيرة لمناقشة أمور في مجال عملي كفيزيائي، وساعدتهم بمعلوماتي في بعض الأمور المستعصية عليهم، بفارق خبرتي عنهم من حيث أتيت، وقال لي دكتور كلارك إنهم وجدوا معي أقراصا مدمجة عالية السعة، فشلوا كليا في معرفة محتواها على أحدث أجهزة الكمبيوتر عندهم..

فطلبت منهم إحضار جهازي الذي لم يستطيعوا فتحه؛ لأنه يعمل ببصمة يدي وهي تقنية عالية لم تكن قد ظهرت بعدُ في عصرهم، وأريتهم محتوياتها وشرحت للدكتور كلارك وجهة نظري، وجلسنا نفحصها لمدة شهر، ثم توصل دكتور هاري إلى أن الموضوع ليس مجرد طاقة فقط.. وإن كانت الطاقة المطلوبة أكبر من المتاح فعليا، إلا أنه سألني: بمَ تفسر أنه لم يأت معك إلى زمننا إلا أنت؟ في حين أن الإعصار حطم منازل وسيارات كثيرة، فلماذا لم يعبر أي حطام معك الثغرة إلى عالمنا؟

ونظر إلينا في شماتة لم يستطع إخفاءها؛ فقد كان من أشد المعارضين لنظرية عودتي إلى الماضي، وكان مؤيدا لأنني خضعت لعملية غسيل مخ متطورة، وتم زرع هذه القصة في رأسي بغرض زرعي من السوفيت وسط الأمريكان، وبالطبع لاقت الفكرة الترحيب من الجانب الأمني؛ لأنه من منطلق عقلياتهم هذا أقرب لفهمهم من هلاوس العلماء هذه عن السفر إلى الماضي، وبناء على الاقتراح تم عزلي مرة أخرى، وأعادوا البحث في أوراقي مرة أخرى، وأصولي في مصر قبل أن أهاجر إلى أمريكا، ولطول المدة التي عُدتها لم يكن هناك وجود لمن يُدعى عماد في العناوين المذكورة.

غير أنهم عثروا على والدي الذي لم يكن قد أنجبني بعد، وهو أمر لو نظرت له مباشرة لشعرت بالدوار، كيف يكون والدك لم يتزوج بعد، وتخبره أنك ابنه الذي يكاد يقاربه في السن، وتخبره أنه سينجبك بعد ١٠ سنوات؟

وبعد أن قدمت إليهم الكثير من المشاهدات عن حياته مما سمعتها من والدي، فإنهم لم يقبلوا بها، بحجة أن أي جهاز مخابرات قوي يستطيع أن يعلم كل هذه المعلومات بسهولة، وحاولنا أن نتناقش بخصوص الاختراعات الحديثة التي أملكها.. إلا أنهم أبدوا تشككهم في أن تكون هذه الاختراعات ليست إلا مبتكرات سرية للسوفيت؛ حيث كان هذا الوقت هو ذروة الحرب الباردة بين السوفيت والأمريكان، حتى إنه قبلها عندما سألوا أحد علماء «ناسا»: ماذا تتوقع أن تجد على القمر عندما تصلوا إليه؟ أجاب بثقة: السوفيت طبعا!

وهذا مما يدل على طريقة تفكيرهم في هذا الوقت، وحاولت بشتى الطرق أن أقنعهم وأن أستعين بحوادث تاريخية في الاختفاء والظهور، وكلها مدونة في مراجع علمية، مثل الطفلين اللذين ظهرا في إسبانيا بعد إحدى العواصف.

غير أن كلارك قاطعني قائلا: إن هذه الحادثة سُجلت كحادثة ظهور

غامض، وكان الكلام فيها عن السكان في الكواكب الأخرى؛ حيث إن هذين الطفلين لم يكونا بشريين عاديين، وسجلتها بعد المراجع على أنها اختطاف بالأطباق الطائرة، إلا أن دكتور كلارك تكلم عن حادثة العالمين اللذين اختفيا أثناء إجراء إحدى التجارب ونُقلا إلى المستقبل؛ حيث ظهرا بعد شهر من تاريخهما..

وإذا كان من الممكن الذهاب إلى المستقبل، فما المانع أن تمكن العودة للماضي؟ وآينشتين قال في وضوح: إن الزمن خط مستقيم يمكن أن نتحرك فيه أماما وخلفا لو توافرت لنا الطاقة اللازمة لذلك. قال لي هاري - بعدم رضا -: نظرية صعبة الإثبات، وأنت لم تقدم لنا ما يثبت بشكل واضح أنك فعلا آتٍ من المستقبل..

وهنا تذكرت أنني نسيت أمرا لا يستطيع أحد أن يعبث به، إنه التاريخ، أنا آتي من مستقبلهم الذي هو ماضٍ بالنسبة لي.. وجلست أعتصر ذهني لأتذكر الحوادث الشهيرة.. كان هناك حادث برجي التجارة، إلا أنه كانت تفصلنا عنه سنوات، وهنا تذكرت حوادث الماشية التي لم يعرف أحد سببها؛ حيث كانوا يجدون الماشية منتزعًا منها بعض الأعضاء، كالكبد والعينين بشكل جراحي فائق الدقة، وأحيانا يجدون الماشية ميتة، ولا يوجد في عروقها أي قطرة دم، وأحيانا انتُزعت العينان بدقة غير عادية، فَغَرَ هاري فاه في ذهول؛ فقد كان الحادث ما زال جديدا ولم يعلم به أحد ولم يحدث سوى في مزرعة واحدة ووقع فعليا وأنا في المستشفى، فمن أين وصلت لي المعلومات؟ كان هذا أول حجر يُلقى في بحيرة هاري، وصنع تموجات كانت في صالحي بالتأكيد؛ لأنه بدأ يقتنع أنني لست جاسوسا، وبدأ يغير معاملته معي ويسعى للاستفادة من خبراتي، حتى توصل دكتور كلارك إلى أن هناك عالما توصل منذ عدة سنوات إلى اختراع آلة الزمن، ووُوجه وقتها بسخرية شديدة بسبب فشله في إثبات صحة هذه النظريات لعدم

توافر الطاقة اللازمة لتجربته هذه، ومن وقتها والعالم هذا انعزل ولم ينشر أبحاثا أخرى، فرجوت دكتور كلارك أن يبحث عنه، فربما كان هناك أمل أن يستطيع مساعدتي، ووعدني دكتور كلارك بالبحث عنه، ونمت يومها وأنا أتذكر ناردي وولديَّ وكم أوحشوني، هل يا ترى سأراهم مرة ثانية، أم سأظل محبوسا هنا إلى أن أموت؟ وظل السؤال معلقا في الحجرة بلا جواب، هل...؟

obeikan.com

- ٤ -

مضت علينا أيام ونحن نحاول الوصول لأي نتيجة عبثا، حتى أتى إلينا خبر أنه تم العثور على العالم ألبرت، صاحب نظرية آلة الزمن، وعندما أتوا به إلينا كان رجلا كبيرا في السن، إلا أن عينيه كانت بهما لمعة تعطيك إيحاء أنه أكثر حيوية من سنه الفعلية..

سألناه عن اختراعه آلة الزمن، فقال لنا إنها كانت نظرية إلا أنها لم تنفذ.. فانهار الأمل في أعماقي، وقلت له: ألم تصنعها أصلا؟

قال لي - في أسف -: لا يا ولدي، لقد كانت مجرد نظرية، إلا أنني لم أجد من يقبل تمويلي لصنعها، خصوصا أنها كانت تحتاج لطاقة كبيرة لم تكن متوافرة وقتها إلا لجهات معينة، سخروا من فكرتي ورفضوا تمويلي. ثم سألنا: ما الأمر الذي فكركما بها بعد هذه السنوات كلها؟

فتبادلنا النظرات أنا ودكتور كلارك، ثم قال دكتور كلارك: أنا سأشرح لك، فربما تستطيع مساعدتنا.. وشرع يحكي له كل شيء وهو ينصت باهتمام حتى انتهى الدكتور كلارك من الشرح، فقال لي العالم ألبرت: هل أستطيع أن أرى البحوث التي استخلصتها بصفتك فيزيائيا من التجربة؟ فأريته إياها، فقرأها وشفته تهتز من التأثر، وهو يقول: رائع، بل إنه أكثر من رائع.. تبادلنا النظرات في دهشة ونحن نسأله: ما الرائع؟!

قال: البحوث هذه تحدد بالضبط المؤثرات المطلوبة للانتقال إلى عصرنا، ما يعني أن عكسها بدقة قد يعيدك إلى زمنك، فقلت له: أهناك أمل حقا؟ غير أن دكتور كلارك قاطعني وهو يقول: لكن بمَ تفسر أن شيئا آخر غير سيارة عماد - وهو الذي أتى إلى زمننا - لم يأت؟

فقال العالم الجليل باسما: ليس الطاقة فقط هي التي فتحت الفجوة، وإلا

كانت الطاقة الموجودة في الإعصار كفيلة بنقل منازل كاملة وسيارات، وربما بشر أيضا إلينا. قلت له في لهفة: إذًا ماذا فتح المجال لي فقط لأنتقل إلى هنا؟

قال في ثقة: الذبذبة، هناك ذبذبة معينة في جهاز في سيارتك هذه، هو الذي ساعد مع الطاقة على فتح الفجوة. قلت له: هل تعلم قوة هذه الذبذبة؟

فابتسم قائلا: يحتاج هذا أن نفحص سيارتك، وأنا سأحدد لك الجهاز الذي صنع الذبذبة.. وأنت عليك أن تقيسها لنا..

فقال دكتور كلارك: ليس الأمر بهذه البساطة، إنه لن يستطيع الخروج من هنا ليفحص سيارته. فنظرت إليه في قلق، فقال لي: أنا سأتصرف، لدينا فيزيائيون هنا في «ناسا»، وسأخرج تصريحا للعالم ألبرت ليكون معنا في الفحص، وحالما نصل إلى شيء سنخبرك..

وتركاني وذهبا وأنا جالس أفكر: هل سأعود حقا؟ ومرت عليَّ ١٠ أيام وأنا أعلم أنهما ما زالا يقيسان الذبذبة ويعملان على فصلها وقياسها، حتى دخل عليَّ الاثنان وهما يبتسمان قائلين إنهما توصلا إلى الذبذبة المطلوبة، وأن العالم ألبرت أتم معادلاته وحساباته، ويستطيع أن يعيدك إلى زمنك إذا توافرت الطاقة المناسبة؟

فقلت له: وهل هي متوافرة؟

قال لي كلارك: يوجد لدينا مفاعل محدود للتجارب، إلا أن طاقته أكبر بكثير مما يمكنك تخيله، ولم يسبق لنا استعمال كامل طاقته من قبل، إلا أن بحسابات العالم ألبرت نستطيع أن نولد الطاقة المطلوبة، لكن ليس لفترة طويلة؛ لذلك فهناك محاولة واحدة فقط، بعدها سينكشف ما نفعله.. ولن يسمحوا لنا بإعادتك إلى زمنك.

قلت لهما: لماذا؟

قال لي العالم ألبرت: هذه المرة لأنك هنا أكثر فائدة لهم، فهم يستقون منك معلومات في مجال الفضاء استغلالا لمجيئك من مستقبلنا، والآن يعدون لجنة تاريخية للحديث معك، ومعرفة جميع التفاصيل المستقبلية، بعد أن اقتنعوا أنك بالفعل من المستقبل.. وهذا خطر جدا، إن المستقبل عبارة عن مجموعة من الأحداث المترتبة على بعضها، ومن الخطر العبث بها؛ لذلك فكرنا أنا ودكتور كلارك أنك يجب فعلا أن تعود إلى زمنك، وفي أقرب فرصة..

قلت لهما: أنتما محقان، لكن كيف؟

قال لي دكتور كلارك: في الصباح سنأخذك إلى وحدة الأبحاث الذرية الخاصة بـ«ناسا»، وهناك سنعيدك، في حين سنخبرهم أننا سنجري تجربة على تحويل المعادن باستخدام الطاقة الذرية..

قلت لهما: وماذا عنكما إذا نجحت التجربة؟ ماذا ستفعلان؟

قال لي العالم ألبرت: لا تقلق، إن الأمر بسيط، إن احتمالات الخطأ واردة، بعض التحقيقات ولن يستطيعوا إثبات شيء في النهاية.

وفي الصباح الباكر أخذاني، وهناك وقفت بالزي الواقي من الإشعاع وأنا أسألهما: ألن يؤثر هذا الزي في عملية الانتقال؟

فقالا لي: لقد درسنا هذا الاحتمال، لا تقلق.. إنه بمثابة السيارة التي كنت تركبها وأنت قادم، وأعطياه حقيبة حاسبه النقال وصافحهما عماد فى حراره وهو يشكرهم على ما فعلاه من اجله قبل ان يبتعدا ويوجها الجهاز عليه ويبدأ العد التنازلى ، فابتسما وقالا إنه من أجل مستقبلنا أيضا، ووقف أمام الجهاز حتى وصل العد التنازلي إلى الصفر، وأغمض عماد عينيه في قوة، وشعر بالأشعة ترجه في قوه، وإن كان الألم أخف هذه المرة، ورأى الأضواء الزرقاء والحمراء تلمع حوله، واستمر الأمر نحو دقيقة..

وعندما سقط متهالكا على الأرض وفتح عينيه، وجد المباني حوله بأشكالها

المعتادة ورأى ضابطا يتجه نحوه بزيه المميز، وليس بالزي القديم الذي تركه هناك، فابتسم وأغمض عينيه في تهالك..

وقد علم أن التجربة نجحت، وأنه عاد إلى زمنه مرة أخرى، ودوت في رأسه كلمات العالم ألبرت، أن العبث بالماضي خطر، وأقر في نفسه أن يختلق قصة يفسر بها نجاته من الإعصار.. وأنه لن يقول كلمة واحدة عن آلة الزمن أبدا.

تمت بحمد الله

obeikan.com

رحلة إلى ما قبل التاريخ

- ١ -

جلس مجموعة كبيرة من الدارسين التاريخيين في قاعة المحاضرات، ليستمعوا إلى المحاضرة التي كان يلقيها الدكتور أرنولد عن آخر نظرية عن انقراض الديناصورات، وقال أرنولد في بداية محاضرته: يعتقد الجيولوجيون أن الديناصورات وجدت في جميع مناطق اليابسة، وقد ظهرت هذه المخلوقات خلال العصر الترياسي، أي قبل نحو ٢٣٠ مليون سنة من الآن.. وكانت اليابسة مكونة من كتلة كبيرة تسمى «البانجيا»، وخلال ١٦٥ مليون سنة من ظهور الديناصورات انقسمت «البانجيا» إلى كتل وقارات حتى وصلت إلى وضعها الحالي، وقد سيطرت الديناصورات على الأرض، وهيمنت على معظم المخلوقات التي كانت موجودة في تلك العصور السحيقة..

كانت تتخاطب صوتيا وحركيا، خاصة أثناء القتال فيما بينها، أو مع غيرها من الكائنات الأخرى.

كما يتساءل البعض: كيف اختفت تلك الكائنات الجبارة فجأة؟ وكيف انقرضت تماما من على وجه الأرض؟

ولا شك أن الديناصورات لم تنقرض بين ليلة وضحاها، بل يمكننا أن نتوقع أن انقراضها قد حدث على امتداد آلاف السنين، وهي فترة قصيرة جدا بالنسبة لسيطرتها على الأرض لملايين السنين.

وهناك عدة نظريات حول أسباب انقراض تلك الكائنات الجبارة، ويرجع بعض العلماء سبب انقراضها إلى تعرض الأرض إلى زخم هائل من تساقط النيازك..

كما حدث في عام ١٩٩٤م عندما تعرض كوكب المشترى إلى تساقط كميات

كبيرة من النيازك على سطحه؛ حيث إن حجم بعض هذه النيازك كان أكبر من حجم الأرض، أما بعض العلماء فيرجعون السبب إلى انفجارات بركانية هائلة أدت إلى انتشار الغازات البركانية، وأدى ذلك إلى برودة المناخ وقلة التغذية. ويعزو بعض العلماء انقراض الديناصورات إلى تغير محور دوران الأرض والمجال المغناطيسي.

كما أن هناك نظرية عن أن الديناصورات انقرضت مع بداية العصر الجليدي على كوكب الأرض.

إن النظريات المطروحة كثيرة، لكن يسعدني اليوم من هذا المكان أن أعلمكم أنه الآن نستطيع أن نعود للوراء ونسجل كل شيء، لنعرف كيف انقرضت الديناصورات..

تعالت الهمهمات في القاعة والكل يتساءل عن كيفية حدوث هذا..

قال دكتور أرنولد: أرجوكم الصمت.. وانتظر دقيقة حتى ساد الهدوء القاعة، وقال لهم: آخر ما توصل إليه علماؤنا في مركز البحوث العلمية والتاريخية هو آخر نتاج لدراسات دامت أعواما طوالا في تنفيذ آلة الزمن.. أجل أيها السادة، اليوم تم الانتهاء من أول تصميم لآلة الزمن بعد بحوث استمرت لأكثر من مائة عام، والآن الآلة في رحلتها التجريبية الأولى، نريد متطوعين منكم، وقد قررنا أن تكون أول رحلة للعصر الترياسي، وستكون لدراسة أسباب انقراض الديناصورات عن كثب، عادت الهمهمات تتعالى في القاعة، ورفع أحد العلماء يده يرغب في التساؤل..

فأشار لهم الدكتور أرنولد بالصمت، ثم سمع السؤال.. كان أحد العلماء يسأل: لماذا أول رحلة لم نعد فيها لأي عصر سابق قريب؟

قال الدكتور أرنولد: لقد درس علماؤنا هذا الأمر، لكنهم فضلوا عدم الدخول في المرحلة الأولى، في ما يمكن أن يغير خط سير التاريخ، بمعنى: لو عدنا مثلا إلى قرنين مضيا لنزور ألمانيا في وقت الحرب العالمية الثانية، وهناك

شوهدتم وتم أسركم واستغلت ألمانيا فارق التكنولوجيا بينكم وبينها، لو وقعتم في أيديهم وعلموا ما بحوزتكم، ألا يمكن أن يستخدموها لينتصروا؟ ماذا لو نجح هتلر في تحقيق حلمه بالسيطرة على العالم؟

إن التاريخ أيها السادة مجموعة من الحلقات، يكفي أن تفقدوا حلقه منها لتغيير مجرى التاريخ بالكامل؛ ولهذا بعد دراسة مستفيضة، قررنا أن تكون أول رحلة إلى هذا العصر؛ حيث لن تتسبب أي أخطاء بحدوث كوارث.

لكن مع ذلك يجب أن تلتزموا الحذر في تحركاتكم، وسيكون معكم أفراد أمن مدربون لحمايتكم، وسنشرح باقي التفاصيل للمتطوعين، حين يتقدمون.. شكرا لإنصاتكم.

تعالى التصفيق في قاعة المحاضرات، ثم قام كل من العلماء الحاضرين وهم يتناقشون فيما سمعوه من الدكتور أرنولد..

وكان منهم مجموعة من الدارسين الشباب الذين انضموا في القريب للمركز، لتفوقهم العلمي، ومنهم كان: كلارك وسارة وجيمي وماري.. كان كلارك يسأل: هل تعتقدون حقا نجاح مثل هذه الرحلة؟

قال له جيمي: بالتأكيد هناك تجارب لم تعلن في المحاضرة؛ لأنني لا أعتقد أنهم يطلبون انتحاريين، لا بد أنهم أجروا اختبارات عليها، وهذه ليست أول رحلة حقيقية لها..

قالت سارة في دهشة: هل تعتقد هذا؟ قالت ماري: بالتأكيد، أنا أرشح رأي جيمي. قالت سارة في خبث: أنتِ ترشحين دائما ما يقوله جيمي. فلكزتها ماري بمرفقها، قائلة لا داعي لهذا اللغو هنا. وقال جيمي: أنا سأتطوع إن كانت آمنة. وقالت ماري: أنا أيضا..

قالت سارة وكلارك: لِمَ لا نذهب إلى مكتب الدكتور أرنولد ونخبره أننا ننوي التطوع، لكن نود أن نعرف بعض التفاصيل؟ رجح الباقون الفكرة في حماس، وقرروا الذهاب بعد الانتهاء من عملهم في نهاية اليوم، وبالفعل

التقوا معا، وذهبوا إلى مكتب دكتور أرنولد وأخبروه برغبتهم في التطوع، لكنهم يودون معرفة تفاصيل أكثر، وهل تم بالفعل اختبار الآلة؟

ابتسم الدكتور أرنولد وقال لهم: بالفعل تم اختبار الآلة، ولعصر أقرب مما تتصورون، لكنني لست في حل من ذكر تفاصيل أكثر؛ فالأمر يندرج تحت بند السرية المطلقة..

قالت له سارة: هل هناك مكروه أصاب أفراد الرحلة السابقة؟

قال لها الدكتور أرنولد: ليس تماما، إنهم بخير، فقط هو وقع المفاجأة عليهم، وعلى كل حال سيكون معكم ليون، وهو حارس محترف سيكون مهمته حمايتكم، بالإضافة إلى أنكم سترتدون أزياء خاصة، تقوم بتنقية الهواء باستمرار احتياطيا، والزي مزود بطاقة كهرومغناطيسية قوية سوف تصنع حولكم حاجزا قويا ضد الصدمات، لو فُرض أنكم تعرضتم لخطر من أي حيوان فهو كفيل بحمايتكم، كما يمكنكم رفع الذبذبة لجعلكم غير مرئيين، لكن لفترات محدودة، وليون معه سلاحه ليتعامل.

لكن يجب أن تكونوا حذرين، استعملوا الأسلحة في أضيق الحدود، مهمتكم الدراسة وليس الصيد..

سألته ماري: كم ستستغرق هذه الرحلة؟

قال الدكتور أرنولد: ستستغرق ٣ أيام، هذه أول آلة نصنعها بطاريتها تشحن نفسها عن طريق الطاقة الشمسية، وهي تستغرق ٣ أيام، تكونون أنتم قد أنهيتم فيها دراستكم على الأرض، ثم تستقلونها عائدين إلينا...

قال كلارك: متى سوف نذهب؟

فقال الدكتور أرنولد: عليكم اليوم بالاستعداد لكي تذهبوا غدا صباحا، لا أحتاج أن أذكركم أن عملنا سري، ولا داعي لإخبار ذويكم أين أنتم ذاهبون، يكفي أن تبلغوهم أنكم ستقيمون الأيام الثلاثة المقبلة في المركز، لدراسة مهمة تجرونها فقط من دون تفاصيل..

ثم قاموا واستأذنوه في الانصراف، وكانوا قد أقروا في نفوسهم أنهم سيتطوعون في هذه الرحلة التي لن تعوض، ليروا بأعينهم عندما كانت الديناصورات تحكم الأرض.

obeikan.com

- ٢ -

توجه جيمي وكلارك وسارة وماري وليون معا إلى مركز بحوث التاريخ، ومن هناك استقلوا عربة خاصة بالمركز إلى مركز بحوث الفضاء؛ حيث قابلهم دكتور أرنولد هناك، وأعاد عليهم الضروريات الواجب اتباعها في رحلتهم..

ثم ركبوا الآلة التي كانت أشبه بغرفة مربعة ضخمة، بها خمسة مقاعد وجلسوا على مقاعدهم، وشرح لهم الدكتور أرنولد طبيعة عملها، وطريقة تشغيلها وأراهم أن كل شيء يدار آليًّا، وإذا حدث أي خلل يمكنهم الضغط على زر الطوارئ، وهو سيقوم بإعادتهم وتأمين المركبة حتى يتم شحنها، وتعود بهم إلى هنا مرة أخرى..

وارتدوا أزياءهم الشبيهة بأزياء رواد الفضاء، وأخذوا مقاعدهم وبدأ العد التنازلي حتى وصل للصفر وارتجت المركبة ارتجاجة خفيفة، ثم وجدوا أنها تتموج بنعومة، وشاهدوا شلالا من الألوان يجري بسرعة بجانب نوافذ المركبة، وعداد السفينة يكتب بسرعة الأزمنة التي يمرون عليها، في عد تنازلي سريع..

حتى وصلوا إلى العصر المطلوب، وبدأت السرعة تقل حتى همدت المركبة تماما، وسمعوا الصوت المعدني للمركبة يقول: نقطة الوصول، العصر الترياسي. ثم فتحت أبواب المركبة، فنزلوا منها وهم مبهورون، ينظرون فيما أمامهم، كانت الأرض مليئة بالنباتات العملاقة..

كانوا في مكان أشبه بغابة، إلا أنها أضخم بمراحل من الغابات في العصر الذي أتوا منه، وقال لهم جيمي في مرح: مرحبا بكم في العصر الترياسى أيها السادة.. أخذوا يتجولون بحذر في البداية حول المركبة التي أغلقوا أبوابها،

واتفقوا أن ينقسموا إلى فريقين..
غير أن ليون اعترض، وقال لهم إن واجبي هو حمايتكم أيها السادة، إذا انقسمنا إلى فريقين، كيف أكون معكم جميعا في الوقت ذاته؟
فقالت له سارة في مرح: يا ليون، لا تأخذ الأمر بجدية هكذا، إننا سنواجه حيوانات عجماء، وليست فرقة مسلحة، كما أن أزياءنا توفر لنا قدرا لا بأس به من الحماية، وعلى كل حال أجهزة الاتصال في أرديتنا كلها مضبوطة على الموجة نفسها، لو حدث ما يسيء سنتصل بك فورا..
وافق ليون عندما وجد أن كلامها منطقي، وذهب جيمي وماري معا، وذهب كلارك وسارة معا.. كان كلارك وسارة يتمازحان، ويأخذان عينات من التربة ليحللاها عندما يعودان إلى المركبة، وكان جيمي وماري يصوران الكائنات الصغيرة التي يريانها.
قال كلارك: آه لو نأخذ معنا عينة حية من هنا إلى المستقبل. فضحكت ماري، قائلة: أنت شديد الطموح يا عزيزي كلارك، هل تتوقع أن تأخذ معك سحلية الرعد مثلا في آلة الزمن؟ فضحك قائلاً: ليس إلى هذه الدرجة، لكن ماذا عن طائر صغير مثل طائر الفينيق.
فقالت له ماري: لا بأس إن كان شيئا صغيرا كهذا، يمكننا أن نرسله لهم بدلا منا، فهو سيأخذ مكاننا نحن الخمسة.. وانطلقا يتجولان حتى وجدا أمامهما على بُعد حيوان ضخم مدرع الظهر، قالت ماري: هذا «الأكانثوفوليس»، واسمه يعني «الميزان الشائك»، وهو أحد أوائل الديناصورات التي ظهرت في بداية العصر الطباشيري، أي قبل نحو ٩١ - ١١٥ مليون سنة.
يمتاز بأنه رباعي الأرجل، مدرع، آكل للنباتات، له زوائد مسمارية الشكل خارجة من رقبته وعلى كتفيه كما تراه. قال لها كلارك: لقد سمي «الأكانثوفوليس» بهذا الاسم من قِبَل عالم الأحياء البريطاني توماس إتش عام ١٨٦٥م؛ حيث إن المتحجرات الجزئية له وجدت في إنجلترا.

كانا يقفان مبهورين يطبقان ما درساه لأول مرة على الطبيعة، وقام كلارك بالتقاط عدة صور له ثم مضيا في مسيرتهما وهما يصوران النباتات والحيوانات الصغيرة في الوقت نفسه، كانت سارة تقف مع ليون وجيمي على مقربة من بحيرة عملاقة يقف فيها ديناصورات ضخمة من نوعية «الأباتوسوروس»، أحد الديناصورات التي عاشت في الفترة المتأخرة من العصر الترياسى، أي قبل نحو ١٤٦ - ١٥٧ مليون سنة تقريبا، رفع ليون بندقيته الميجالترونية في حرص، فقال له كلارك: لا تقلق يا عزيزي، إنه على الرغم من ضخامته آكل للنباتات، على الرغم من أنه يعد من أضخم الديناصورات، حتى إنه أكبر من سحلية الرعد.

«الأباتوسوروس» من أضخم الديناصورات التي عاشت على الأرض؛ حيث يبلغ طوله نحو ٧٠ - ٩٠ قدما، أي ما يعادل ٢١ - ٢٧ مترا تقريبا، أما وزنه فنحو ٣٠ - ٣٥ طنا.. وقفوا مبهورين ينظرون إليه، ثم قامت سارة بتصويره، ثم أخذوا طريق عودتهم إلى المركبة، في حين كان جيمي وماري يتناقشان وهما يصوران بعض الطيور الجارحة..

حينها شعروا باهتزاز قوي في الأرض، ثم بدأت الطيور الجارحة في العدو، وظهرت أمامهم سحلية الرعد، أشرس ديناصور آكل للحوم في هذا العصر، فصرخت ماري من المفاجأة فالتفتت إليهم، فجذبها كلارك من يدها وهو يقول لها: ماذا فعلتِ بنا؟ هيا إلى المركبة..

وانطلقا يعدوان وهما يشغلان المجال الكهرومغناطيسي، في أحزمة أرديتهما ويعدوان، ثم انحرفا جانبا واختفيا خلف شجرة ضخمة، وتركا سحلية الرعد تعدو في إثرهما وهي لا تعلم أنها عبرت بجانبهما، لكن الغلاف الكهرومغناطيسي كان هو الذي يخفيهما.

وبعد مرورها بدقيقة تقريبا فتحت ماري فمها، وقالت لكلارك: أنا آسفة، لم أستطع أن أتمالك نفسي. قال لها كلارك: لا بأس، المهم أننا نجونا، إنه حقا

مرعب، هيا نعود إلى المركبة.. يكفينا هذا اليوم، وفي طريق عودتهما شعرا بهزة قوية في الأرض.. فسحبها كلارك من يدها، واختفيا خلف جذع شجرة، ورأيا ديناصورا ضخما يتحرك فإذا به «الأباتوسورس»، فتنهدت ماري قائلة: لا بأس، إنه آكل نباتات، لا خطر منه، هيا بنا.. وبعد مدة شاهدا المركبة تقبع أمامهما ودخلا إليها، ليجدا سارة وجيمي وليون قد سبقوهما إلى المركبة وجلسوا يتناولون طعامهم، فجلسا هما أيضا، وأثناء تناولهم الطعام أخذ كل منهم يحكي للآخرين ما صادفه في رحلته الاستكشافية الأولى، كان الأمر بقدر ما هو مرعب إلا أنه كان ممتعا، وقرروا أن يخلدوا للنوم..

ثم سألت سارة: ماذا لو هاجم أي ديناصور المركبة ونحن نيام؟

قال ليون في ثقة: لا تقلقي، لقد أعملت الحاجز الكهرومغناطيسي حول المركبة، ولن يستطيع أي كائن الاقتراب منها في مدار مترين من أي اتجاه، وزيادة تأكيد يمكنكم النوم وأنا سأراقب بكاميرات الاستطلاع الخارجية، لا تقلقوا..

قال له كلارك: وأنت، ألن تنام؟ قال لهم: سأنام عندما تستيقظون، لا مشكلة بالنسبة لي. وخلدوا للنوم في عمق.. وفي الصباح التالي جلسوا يحللون العينات التي أخذوها من التربة والنباتات ويفحصون الصور التي التقطوها في جولتهم..

وقال جيمي: إن التربة خصبة للغاية، وبها الكثير من المواد البركانية. قال له كلارك: هذا ما توقعته من تحليلي للنباتات العملاقة التي رأيتها، سبب ضخامتها هو ارتفاع خصوبة التربة، بالإضافة إلى الأسمدة النيتروجينية الطبيعية الناتجة عن نفوق بعض هذه الحيوانات العملاقة..

قالت ماري: أما أنا فبعد فحصي للقشرة الأرضية لم أجد بها أي آثار لنيازك، مما يدل على أنه حتى الآن لم يحدث شيء.

قالت لهم سارة: ما رأيكم أن نتقدم بآلة الزمن ١٠ آلاف عام إلى الأمام؟

قال لها كلارك: لكن المفترض أن نعود غدا..
قالت ماري: معنا مؤن تكفينا، ولن يحدث شيء، إننا وصلنا في وقت مبكر، ولم نعرف شيئا من الذي أتينا لدراسته.
قال جيمي: أنا موافق، وماري وسارة، لم يبقَ سواك وليون.. قال ليون: أنا مع الأغلبية، لا مشكلة عندي.. فقال جيمي: حسنا، إنه رأي الأغلبية يا صديقي، يجب أن تخضع.. فقال كلارك: حسنا، إنكم لم تدعوا لي الخيار، غدا ننطلق في رحلتنا لنعرف ماذا حدث للديناصورات.. وكانت بانتظارهم مفاجأة غير متوقعة..

obeikan.com

- ٣ -

عندما وصلت المركبة هذه المرة، كانوا يتوقعون أنهم سيرون المكان مقاربا لما كان عليه، إلا أنهم وجدوا أن المركبة وقفت في مكان خالٍ تقريبا من النباتات العملاقة..

فقال كلارك: هل وصلنا بعد هبوط النيازك؟

قالت له سارة متعجبة: حتى النيازك لا تمهد الأرض بهذا الشكل، إن هذا من صنع كائنات مفكرة. فالتفتوا إليها في دهشة..

قالت ماري: لا يسرح خيالك كثيرا يا عزيزتي..

قال جيمي: إن الأمر حقا غير طبيعي، إن الأرض ممهدة بشكل غريب، والنباتات تم انتزاعها من جذورها، وتمت تسوية الأرض بهذا الشكل.

قال ليون: أنا أرجح أن نخفي المركبة، ونتجول معا كمجموعة، فلسنا ندري ما الذي سنواجهه هذه المرة. وافقه الجميع على رأيه وأعملوا الموجة الكهرومغناطيسية حول المركبة، وانطلقوا في جولتهم ينظرون فيما حولهم، وهم متعجبون من اختفاء النباتات الصغيرة وقلة الحيوانات..

وبينما هم يتجولون، وجدوا على مرمى البصر مجموعة مركبات فضائية ضخمة تحتل رقعة ضخمة من الأرض، ويقف حولها كائنات ضخمة تناهز الـ٣ أمتار طولا، ويحملون بنادق ضخمة، ويتجولون حول السفن، فالتفتوا إلى بعضهم مندهشين..

وقال جيمي: هذا لا يصدق، ما هذه الكائنات؟ وماذا تفعل هنا؟

أجابه كلارك: لست أدري، لم ندرس شيئا عن قدوم مخلوقات من كواكب أخرى إلى الأرض في الماضي السحيق هذا..

قالت ماري: هيا ننسحب من هنا، وننظر في مكان آخر. ساروا في الاتجاه

الآخر ناحية البحيرة فوجدوا مجموعة ضخمة من هذه الكائنات واقفة، معها أسلحتها الضخمة، وتطلق منها على الديناصورات العملاقة، كانت تطلق نوعا حارقا من الأشعة، طلقة واحدة منه كفيلة بقتل الديناصور العملاق، من نوعية سحلية الرعد.

كانوا يطلقون على كل الأنواع الموجودة التي يجدونها من دون تمييز..

فقالت سارة: ماذا يفعلون؟ هل يسعون إلى إبادتهم؟

قال كلارك: أعتقد هذا، لو كانوا يفكرون باستيطان الأرض، فلن يستطيعوا أن يحيوا وسط الديناصورات.. هيا نعُد إلى المركبة وندرس الموقف من هناك.. وطفقوا عائدين إلى هناك، ووصلوا وفتحوا باب المركبة بعد إظهارها، وقبل أن يدخلوا سمعوا صيحة من خلفهم.

فنظروا فوجدوا اثنين من هذه المخلوقات يقفان خلفهم، ويشيران إليهم، واضح أن وقع المفاجأة كان صعبا على الطرفين، إلا أنه فيما يبدو أن الغرباء كانت أوامرهم محددة بإبادة جميع أنواع الحياة التي على سطح الكوكب.

فرفعا بندقيتهما في وجوههم، إلا أن ليون كان أسرع؛ فقد أطلق طلقة من بندقيته الميجالترونية على بندقية أحد المخلوقين، فانفجرت في عنف أطاح به وبزميله، ونتجت موجة تضاغطية قوية، أطاحت بأفراد البعثة أيضا، إلا أن الموجة الكهرومغناطيسية المحيطة بهم حمتهم من عنف الانفجار..

كان أول من تكلم هو ليون، فقال: هل الجميع بخير؟

قالت سارة: أنا بخير. وقال جيمي وهو ينهض: وأنا أيضا. قال كلارك: لو تغاضينا عن تأثير المفاجأة فأنا بخير. قالت ماري: وأنا أيضا. قال ليون: حسنا، أود من كلارك وجيمي أن يساعداني الآن في دفن هذين الكائنين.

قال له جيمي: لماذا؟

قال ليون: لأن موتهما لن يمر بسهولة، فمن الواضح أن انفجار سلاحهما لم يكن من قبيل المصادفة، وسيدركون أن هناك كائنات عاقلة هنا على سطح

الكوكب، ولن يمر الأمر بسهولة، في حين أننا لو دفنَّا جثتيهما، فسيظلون يبحثون عنهما وسوف يظنون أن أحد الديناصورات العملاقة قد أكلهما..
ونحن ما زال أمامنا يومان آخران، قبل أن تشحن طاقة السفينة لنستطيع السفر مرة أخرى إلى زمننا. قال جيمي في إعجاب: أحسنت يا ليون، إنك حقا تفكر بطريقة رائعة ومنظمة. قالت سارة: أجل، إنك تصلح قائدا حربيا، وليس فقط حارسا أمنيا..
فابتسم ليون لإطرائهما، وقال: شكرا لكما، لكن الوقت ليس في صالحنا، هيا نبدأ.. وتعاونوا في صنع حفرة متوسطة، دفنوا فيها الكائنين ورديماهما، وحاولوا إخفاء آثار الحفر بقدر الإمكان، ثم عادوا إلى المركبة وجلسوا يتناقشون، ويُعملون آلات الرصد لمعرفة ماذا يدور حولهم.
وأرسلوا جهازا صغيرا أشبه بالفار، إلا أنه كان مراقبا آليا من أحدث ما توصلوا إليه، وأطلقوه وجلسوا في المركبة يرون على الشاشة كل ما يحدث حولهم، كان في جزء من الكوكب تدور عمليات الاصطياد بقوة لكل أشكال الحياة، وفي جانب آخر بدأ هؤلاء الكائنات في استخدام الأخشاب التي أخذوها من الغابات في بناء مبانٍ ضخمة..
فقال جيمي: ماذا يفعلون؟ قالت ماري: يبنون مركز قيادة، لا شك أنهم ينوون الإقامة هنا. قالت سارة: ولماذا يفنون كل أوجه الحياة على الكوكب؟ قال جيمي: ربما كانوا يصطحبون معهم كائنات من كوكبهم، ينوون إطلاقها في الكوكب، بعد إعداده لمعيشتهم..
قال كلارك: لكن إن كانت هذه الكائنات قد عاشت على سطح الأرض، لماذا لم نرَ أثرا لها في المستقبل، كما وجدنا بقايا الديناصورات؟
قالت له ماري: وماذا لو كنا قد وجدنا آثارا لها لكننا لم نعرف أنها لها؟ قال جيمي: ماذا تعنين؟ قالت سارة: أنا أفهم ما تقصده ماري، لقد لاحظت ماري أن هذه الكائنات أشبه بالإنسان مع فارق حجمها؛ لهذا فقد دار

بذهنها أن هذه الكائنات هي إنسان بكين..
قالت ماري: هذا صحيح. قال كلارك: ما تقولونه غير صحيح؛ لسبب بسيط: إن إنسان بكين ظهر في عصر تالٍ لعصر الديناصورات، ولم يحيوا معا، وهذا ما أثبته التحليل لعظامه بالكربون وعظام الديناصورات. قال جيمي: ليس شرطا إنسان بكين..
ربما «نينادرثال»، كما أنك لا تدري ما تأثير الزمن على هذه العظام، هل نسيت أنها غير بشرية ولا تنطبق عليها مقاييسنا؟ ربما تعطي نتائج مختلفة، إن الأمر يستحق الدراسة.. تعالى في هذه اللحظة صوت متقطع من أجهزة المركبة الزمنية..
فنظر كلارك وقال: هناك ذبذبة عالية قادمة من وسط الكوكب، من حيث تجمُّع السفن الفضائية. قالت له سارة: هل كشفوا أمرنا؟
قال: ليس بعد، لكن فيما يبدو أنهم في طريقهم إلى ذلك، أنا أرى مجموعه ضخمة منهم تقترب ومعها جهاز يبدو أنه نوع من الرادارات الكاشفة.
فقالت ماري: لكن الطبقة الكهرومغناطيسية تشتت موجات الرادار. قال كلارك: هذا يعتمد على نوعية الموجات المستخدمة، وظلوا يراقبون في قلق، إلا أن المخلوقات كانت تسير في اتجاه موازٍ لهم فاطمأنوا قليلا، ومع حلول الليل توقفت حملاتهم وعادوا إلى مراكزهم.
فقال كلارك: حسنا، نستطيع أن نتناول طعامنا وننام الآن ولنستعد غدا للرحيل. وافقه الجميع، وتناولوا طعامهم، وفي الصباح استيقظوا على صوت إنذار المركبة، فانتفضوا من نومهم ونظروا إلى كاميرات المراقبة التي كانت تريهم مجموعة ضخمة من الكائنات تقف أمام المركبة غير المرئية..
غير أنه كان من الواضح أنهم عرفوا مكانها، ويحاولون إظهارها بتشتيت الموجة حول المركبة، فقال ليون: سأرفع الذبذبة، إلا أن جيمي أمسك رسغه قائلا: لا تفعل، إن رفعت المجال عن هذا قد تقتلنا، وقد تتفتت المركبة.

قال ليون في يأس: وماذا نفعل إذًا؟ أنا لا أملك سوى بندقية واحدة، ولن تصمد أمام كل أسلحتهم.

وقفوا واجمين يفكرون، وقالت ماري: ألم تُشحن المركبة بعد؟ فنظر إليها جيمي وقال: ليس بعدُ، أمامها ساعة أخرى، حتى تستطيع العودة..

قالت ماري: إنهم لن يمهلونا هذه الساعة.

فجأة توقفت الكائنات عن العمل، ووضح أنهم تلقوا أمرا مباشرا بالعودة، فقد عادوا مسرعين إلى سفنهم، وعملوا على جمع مواردهم وأفرادهم وأسلحتهم من على السطح، ومرت ساعة وهم يعملون في سرعة..

وظهرت في السماء شهب ونيازك مختلفة الأحجام، تتوجه ناحية سطح الكوكب في سرعة، وأُغلقت أبواب السفن الفضائية التي حاولت الإقلاع سريعا، إلا أن الكثير منها كان يتحطم في السماء، من ارتطام النيازك به فكان يهوي مشتعلا على سطح الكوكب كشهاب محترق..

وبعضهم نجح في الإفلات والانطلاق سريعا خارج كوكب الأرض، وبعضهم لم يستطِع النجاة، فهوت على رءوسهم النيازك من أعلى، في ارتطام قوي بالأرض، مما سبب هزات عنيفة وانفجارا في البراكين وارتفعت درجة حرارة الكوكب بشدة، مع كم النيازك المتتالية..

وكانوا جالسين ذاهلين في مركبتهم يراقبون ما يحدث، حين تكلم جيمي قائلا: إن النيازك حقا هي ما أفنت الحياة على سطح الكوكب، لكن ليس من الديناصورات، لكن من الغزاة الذين أرادوا احتلال الكوكب. قالت سارة: لحسن الحظ أن النيازك ارتطمت بقلب الكوكب ولم تصب المنطقة التي نحن بها، إلا أن درجة الحرارة في الخارج في ارتفاع مطرد، لولا أننا بداخل المركبة لما نجونا من هذا الفرن..

قال كلارك: هل نقلع الآن إلى زمننا؟

قالت ماري لهم: دعونا نسجل هذه اللحظة التاريخية من تاريخ كوكبنا

قبل أن نرحل، ونتأكد هل نجا أحد من الغزاة.
قال لها جيمي: أشك في هذا.. قاطعهم ليون: انظروا إلى الشاشة. فنظروا إلى الشاشة فوجدوا نيزكا عملاقا يهبط بسرعة إلى سطح الكوكب، كان قطره ليس أقل من ٢٠ ميلا، وكان يهبط بسرعة، فقالت سارة: دعونا نحدد مكان سقوطه..
وقال جيمي: دعونا ندرس قوة ارتطامه وما النتائج المنتظرة.
قال لهم ليون: أيها السادة العلماء، أنا آسف. نظروا إليه قائلين: ماذا تعني بأنك آسف؟
قال لهم: أعني أن مهمتي الأولى هي تأمينكم، وكما ترون معدلات الحرارة في ارتفاع، وجسم المركبة لن يحتمل هذا إلى الأبد وأنا مضطر، واستدار وضغط على زر الطوارئ..
فأقلعت المركبة في الحال، ودخلت وسط شلال الألوان من جديد في مجرى الزمن..
قال له كلارك: لماذا يا ليون؟ كان أمامنا وقت، كنا نستطيع على الأقل أن ندرس مكان سقوطه..
قال ليون: عذرا يا سيدي، لقد فعلت الصواب، لو ارتطم هذا النيزك بالأرض بضخامته هذه، ما كنا نضمن النتائج، ربما فاضت البحار أو غرقت المركبة وانتهينا جميعا..
قالت سارة: إنه محق على أي حال، المهم أننا عدنا سالمين من هذه الرحلة الصعبة، رحلتنا إلى قلب التاريخ.

الجزء الثالث
غواص
على الطريق

obeikan.com

الفصل الأول
البداية

استيقظ حاتم من نومه في الصباح على صوت زوجته وهي تخبره أن طعام الإفطار قد أُعد، قام بأخذ الحمام الصباحي المعتاد لينفض عن نفسه الكسل، وجلس يتناول الإفطار مع زوجته..

كان حاتم يحيا في إحدى محافظات البحر الأحمر، على بعد ١٥٠ كم من الغردقة حيث عمله، عرف البحر وألفه منذ صغره، لحياته في مدينة ساحلية منذ مولده، لقد كان يعيش في رأس غارب..

كان الجو باسما يسوده المرح، وانتهيا من إفطارهما، وقام حاتم بارتداء ملابسه، واستعد لتوصيل زوجته أمل إلى منزل والديها قبل سفره إلى عمله في الغردقة؛ حيث يعمل غواصا سياحيا هناك، وعمله يقتضي تغيبه لأيام في البحر..

أخذ زوجته معه حتى منزل والديها؛ حيث أوصلها وودعها، وانطلق هو مسافرا بسيارته إلى الغردقة، كان يفكر منذ فترة: ما الوضع هناك منذ قيام الثورة؟ ولم يتصلوا به وقد كان معتادا ألا يمر شهر في إجازته حتى يتصلوا به لحاجتهم إليه في عمله، إلا أنه منذ أكثر من ٣ شهور وهو في المنزل، ولم يقوموا بالاتصال به..

حين اتصل أمس بمدير شركته، أخبره أنه سينتظر قدومه في الصباح، إلا أن لهجة مديره لم تُرِحه؛ فمديره «السيد نبيل» دائم المرح والابتسام، وأمس حين تحدث إليه كان يستشعر في صوته نبرة لم يألفها، نبرة من التحفظ

والأسف..

وحين وصل إلى مقر شركته في الغردقة، صعد إلى مكتب مديره، وهاله الفراغ المسيطر على المكان، الذي كان ممتلئا دائما، فلم يقابله إلا عم أيوب الساعي، الرجل العجوز الذي طالما مزح معه، وكان يفرح عند رؤيته..

لم يرحب به كالعادة، ولم يكن يرتدي زي العمل، لكنه كان في طريقه إلى الخروج من الشركة، وحينما سأله حاتم لماذا لا يرتدي زي العمل وإلى أين هو ذاهب، نظر إليه عم أيوب في أسف وحزن، وقال له: سأعود إلى بلدتي، لم يعد هناك عمل لي هنا..

قال له حاتم: لماذا يا عم أيوب؟ لقد اعتدنا عليك، لا تذهب، هل اختلفت في شيء مع السيد نبيل؟ يمكنني أن أصلح بينكما، أنت تعرف أن السيد نبيل طيب، وهو لا يستغني عنك..

ربت عم أيوب على كتف حاتم وقال له في أسف: ليست مشكلة السيد نبيل، إنها مشكلة وطن بأكمله، هل تستطيع أن تصلح وطنا بأكمله وحدك؟

صمت حاتم حائرا ولم يفهم ما المقصود بحديث عم أيوب، وتركه عم أيوب ومضى في طريقه، وصعد حاتم إلى مكتب السيد نبيل، في الطابق الثاني، كان السيد نبيل رجلا في أواخر العقد الخامس من عمره، وقورا، شعره أسود إلا من بعض الشيب الذي خط فوديه، ولم يزده إلا وقارا..

استقبله في أسف، وهنَّأه على وصوله سالما، وحين سأله عمَّا حدث بينه وبين عم أيوب ولماذا عم أيوب راحل، قال له السيد نبيل في أسف: كلنا راحلون، ليس عم أيوب وحده الذي رحل، منذ ٣ شهور ونحن لا نعمل كما ترى، الحياة متوقفة، لا توجد سياحة، ولا يوجد عمل، ولا يوجد غطس ولا تأجير معدات، ولا رحلات، ولا أي شيء، منذ ٣ أشهر منذ قيام الثورة ونحن نحاول أن نعمل، وعلى الرغم من قلة عدد السائحين الوافدين، فإننا

نحاول أن نستمر في العمل، ونقول: أيام وستمضي والقادم أفضل، لكن يبدو أنه لا فائدة..

كان حاتم يستمع إليه مصدوما، ولم يستطع أن يتكلم، استطرد مديره قائلا: لا توجد فائدة من البقاء، المصاريف في ازدياد، والعمل في معدل هابط باستمرار، لقد قررت إغلاق الشركة حتى نرى إن كنا نستطيع العمل مرة أخرى أم أنها النهاية، ولقد استدعيتك اليوم لأخبرك أنني سأغلق الشركة وأسافر..

كان حاتم يكذب نفسه طوال الفترة السابقة، وكان يقول لنفسه: إن الأمر لن يصل إلى هذا الحد.. إلا أنه أمام هذا الحديث المباشر، لم يجد بدا من الانصراف، فقام من مجلسه وصافح مديره السيد نبيل، وأخبره أنه سعد بالفترة التي عملها معه، وأنه لم يكن يتوقع أن تصل الأمور إلى هذا الحد، وأنه مقدر لسوء الظروف المحيطة التي اضطرت السيد نبيل إلى اتخاذ هذا القرار..

وهمَّ بالانصراف حين استوقفه السيد نبيل وأعطاه مظروفا مغلقا.. فتحه حاتم ليجد بداخله مبلغا من المال، رفع عينيه متسائلا إلى السيد نبيل..

فقال له السيد نبيل وهو منشغل في ترتيب أوراقه: هذا مبلغ بسيط يمكنك اعتباره مكافأة نهاية خدمة عن عملك معي.

كان حاتم يعلم أن عمله ليس بعقد، ولا يوجد عندهم معاش؛ فهو ليس في شركة حكومية، ولا هناك مكافأة نهاية خدمة، لكنه كان يأخذ أجره نسبة من النقود المحصلة من الأفواج السياحية التي كان يغطس بها.

نظر إلى مديره في امتنان؛ فقد كانت هذه لفتة كريمة منه؛ فهو يعلم أنه ليس هناك ما يلزمه بفعل شيء كهذا، إلا أنه حقا كان بحاجة إلى هذه النقود؛ فهو متزوج حديثا ولديه التزامات، مثل باقي أقساط الشقة التي يقطن بها في البحر الأحمر..

صافحه حاتم في امتنان، وهو يشكره ويتمنى أن يلقاه على خير، صافحه مديره السابق وأخبره أنه سيتصل به عندما يعود إلى الوطن مره أخرى..

ومضى حاتم في الطريق عائدا إلى بلدته وهو يفكر: ماذا سيقول لأمل عندما يعود في اليوم نفسه؟ وهل يخبرها أنه ترك عمله؟ وماذا سيعمل؟ إنه لا يجيد شيئا مثل الغطس، مجال دراسته بعيد تماما عن أن يعمل به، حتى لو أراد لن يجد وظيفة؛ فهو لم يجد حين كان خريجا وكان البلد مستقرا عن الآن، فهل سيجد الآن في مثل هذه الظروف؟

قرر أن يترك الأمر لوقته، وعاد إلى منزل حميه؛ حيث قضى اليوم هناك معهم، وحين سألته أمل في دهشة عن سبب عودته في اليوم نفسه أخبرها أن الأمر مجرد إجراءات وأوراق ينهيها صاحب العمل معهم، وأنه أعطاه مبلغا من المال حتى ينتهي من تجديد مبنى الشركة والمحلات الملحقة به هناك، في أقرب وقت، وسيتصل به حين ينتهي..

اعتاد حاتم أن ينزل ليجلس على المقهى في المساء، كانت الحافلات المغادرة من «راس غارب» قليلة، ولا تعمل طوال اليوم مثل القاهرة والإسكندرية، وكانت تتجمع عند مقهى يسمونه مقهى المحطة..

وبينما كان جالسا وجد شخصا يتجول بحقيبة يسأل: هل هناك حافلات مغادرة إلى القاهرة؟

ولم يجد في هذا الوقت المتأخر نسبيا أي حافلات..

وجلس على مقعد ليس بعيدا عن حاتم، وكان يتكلم في هاتفه المحمول، وسمعه حاتم يقول للطرف الآخر: لا أستطيع الوصول إلى القاهرة اليوم، ولا أدري ماذا أفعل، لا توجد أي حافلات مغادرة ولا أجد أي مواصلة من أي نوع آخر، فلا توجد قطارات، ولا أجد «بيجو»، ولا أجد سوى حافلات مغادرة إلى الغردقة، ولا أستطيع أن أركبها إلى الغردقة، ومن الغردقة إلى القاهرة مره أخرى، فحين أصل سيكون الوقت قد تأخر، ولن ألحق

موعدكم في الصباح..

كان رجلا في نهاية العقد الرابع من العمر، يرتدي بدلة سوداء ويحمل حقيبة صغيرة، كان يبدو عليه أنه رجل أعمال..

كان حاتم يسمعه يتناقش في الهاتف مع الطرف الآخر، وهو يقول له، حسنا سأبحث عن أي سيارة خاصة تقلني إلى القاهرة بأي شكل. وأنهى المحادثة، ونظر حوله فوجد حاتم ينظر إليه، شعر حاتم بالحرج حين رآه الرجل وشعر أنه يتأمله فأدار وجهه الناحية الأخرى، إلا أنه فوجئ بالرجل يأتي باتجاهه ويسأله: من فضلك، هل توجد هنا عربات توصلني إلى القاهرة ولكن اليوم، حتى لو كانت عربة «ملاكي»؟ فلديَّ موعد في الغد في الصباح الباكر، ولا بد أن ألحق به، ولا يهم النقود.

قال له حاتم: لن تجد الآن، أقرب حافلة مغادرة ستكون في الصباح الباكر في الثامنة صباحا. بدا الأسف على وجه الرجل، وأطرق برأسه إلى الأرض، إلا أن حاتم سأله في تردد: إن أخذت عربة «ملاكي» إلى القاهرة، كم ستدفع لها؟

قال له الرجل في أمل: سأعطيه ٢٠٠ جنيه، ويوصلني اليوم إلى القاهرة؟

أدار حاتم الأمر في رأسه، وقال: لِمَ لا؟ أنا لا أعمل أي شيء، والقيادة أنا معتاد عليها لفترات طويلة، لا بأس، إن ٢٠٠ جنيه مبلغ لا بأس به في ظل الظروف التي أمرُّ بها، فقال له حاتم: حسنا، هيا بنا، أنا سأوصلك إلى القاهرة..

وركبا معا سيارة حاتم، حتى القاهرة، وظلا يتحدثان في أمور كثيرة عن الثورة والبلد وأحواله، وهل هو مع الثورة أم ضدها، وأخذهما الكلام فلم يشعرا بالطريق إلا وهما فعلا في القاهرة؛ حيث صافحه الرجل وأعطاه النقود وكارت شركته، وأخبره أنه يمكنه الاتصال به إن أراد أي خدمة في القاهرة.

شكره حاتم وعاد إلى «راس غارب» وهو يفكر أن الأمر لا بأس به.. إن رحلة واحدة ذهابا وإيابا، يوميا، سوف تكفيه، لكن لم يكن الأمر سهلا على الإطلاق، فمن أين يأتي برحلة يوميا من القاهرة وإليها؟ وجرت أشياء لم تكن في الحسبان على الإطلاق..

obeikan.com

الفصل الثاني
حادث على الطريق

عاد حاتم إلى منزله قرب الفجر، كان مرهقا على الرغم من اعتياده القيادة لفترات طويلة، إلا أن السفر من دون الاستعداد له وأيضا تأخر الوقت والقيادة الليلية كانت تستنزف جهده بشدة، عاد مرهقا وكانت أمل نائمة.. أشفق عليها أن يوقظها في هذا الوقت المتأخر لتعد له طعاما للعشاء، فارتدى منامته ونام حتى الصباح.

في الصباح استيقظ، سألته أمل عن سر تأخره أمس في العودة، أخبرها أنه كان يسهر مع بعض الأصدقاء ومضى الوقت وعاد في وقت متأخر.

كانت غاضبة بسبب أنه تركها في وقت إجازته وخرج وقضى اليوم مع أصدقائه أمس، إلا أنه سرعان ما صالحها وعزمها على العشاء في الخارج، وكل هذا وهي لا تعلم أن إجازته مفتوحة إلى أجل غير مسمى حتى الآن.

قضيا سهرة جميلة، وتناولا طعامهما في أحد المطاعم، وأعادها إلى المنزل، وتركها بحجة أن لديه موعدا مع صديق، وطلب منها أن تنام ولا تنتظره، فربما يتأخر، وتركها وذهب إلى كافتيريا المحطة وجلس ينتظر أن يجد راكبا يريد السفر، كان هناك ٣ جنود جيش يبحثون عن حافلة إلى مصر ولم يجدوا..

سمعهم يتجادلون في هذا الأمر، كان أحدهم يقترح الانتظار على المحطة حتى الصباح، وأحدهم يقترح أن يذهبوا للبحث عن مكان للنوم حتى

الصباح، والثالث يرفض بشدة، ويخبرهما أنهم إن لم يكونوا في طابور الصباح في وحدتهم فسيحرمون من إجازتهم لمدة شهر مقبل (هيدوّرو مكتب).

استجمع حاتم شجاعته وذهب إليهم، وأخبرهم أنه سمعهم يتحدثون بشأن سفرهم إلى مصر، وأنهم لا يجدون حافلة، وأنه يمكن أن يأخذهم إلى وحدتهم بسيارته، وسيأخذ نفس أجر الحافلة، أي ٥٠ جنيها من كل فرد منهم، رحبوا بالفكرة وركبوا معه السيارة وانطلقوا.

كان الأمر قد بدأ يروق لحاتم، واليوم هو مستعد للرحلة، وانطلقوا، ولفتت نظره على الطريق المظلم سيارة تقودها سيدة كبيرة في السن وفتاة عمرها لا يتجاوز السبعة عشر عاما، كانت تسبقه أوقاتا بقليل ثم تهدئ من سرعتها فيتجاوزها هو الآخر قليلا، لكنه يظل على مقربة منها، كان يشعر أنها تأنس به في هذا الطريق الموحش في هذا الوقت المتأخر، الذي لا يعرف ما الذي جعلها تسير فيه.

كان هناك نقاش حاد يدور بين الجنود الذين يركبون معه، عن الثورة والجيش، وإذا كانت القرارات التي تُتخذ سليمة أم لا..

قال أحدهم، واسمه أحمد وهو شاب في أواخر العشرينات من عمره، عريض المنكبين، أسمر البشرة: إننا لا نستطيع المعارضة، فكل ما نؤمر به نفعله، هذا هو دورنا الذي تعلمناه، إن عصيان الأوامر في وقت الحرب جريمة تستوجب الإعدام..

قال خالد، وهو يبدو أصغرهم سنا: أنا معك، لكن هذا في أوقات الحرب، ونحن لا نحارب، إننا ندافع عن حريتنا ووطننا وكرامتنا، أمام استبداد طال لمدة ثلاثين عاما، من حقنا أن نعبر عن رأينا مثل أي فرد في بلدنا، ليس معنى أننا مجندون أننا أصبحنا من عالم آخر، فهذا الوطن وطننا مثل ما هو وطنهم، ولن يستطيع زيي العسكري أن يعوقني عن إبداء رأيي فيما

يحدث، أليس كذلك يا محمود؟
وكان محمود هذا زميلهما الثالث، وكان رده بليغا عليهما، فقد ارتفع صوت غطيطه؛ لأنه تركهما يتشاجران ونام في عمق، فلكزه خالد في كتفه وهو يقول له: «اصحى يا دفعة» بصوت غليظ، فانتفض محمود وهو يقول: «تمام يا أفندم»..
فانفجر أحمد وخالد ضاحكين من رد فعل محمود التلقائي، ومعهما حاتم الذي لم يستطِع منع نفسه من الضحك على الموقف.
ولفتت نظره بنزينة تحت الإنشاء على الطريق، لم تعمل بعدُ، لكن بداخلها كانت تقف عربة نصف نقل من نوع حديث، وبها ٣ رجال ملامحهم صلبة، لمحهم حاتم وتساءل عن سبب وقوفهم في هذا المكان المقفر، إلا أنه لم يعلق..
بعدها بخمس دقائق طلب منه أحمد التوقف على جانب الطريق لدقائق ليقضي حاجة، فتوقف على جانب الطريق، ونزل من السيارة ليدخن سيجارة، ولاحظ أن عربة السيدة لم تعد وراءهم، وحين عادوا إلى السيارة، قال للجنود: هل لاحظ أحدكم أن السيارة الفضي التي كانت تسير وراءنا حينا وأمامنا حينا توقفت خلفنا ولم تأتِ؟
قال خالد: أنا لاحظت هذا، مع أننا لم نمر بأي استراحة على الطريق. قال حاتم: أنا أشك في السيارة المريبة التي كانت تقف بداخل البنزينة التي تحت الإنشاء في الطريق، فركابها لا يوحون بالثقة، كان حاتم يود الرجوع إلى الخلف ليرى ما الأمر، ربما تعطلت سيارة السيدة أو حدث ما يسيء، إلا أنه كان قلقا من رد فعل الجنود، فهو الآن سائق، وليس من حقه أن يعطل الناس معه..
شرح لهم الأمر ومخاوفه، فقالوا له: «لف وارجع يا أسطى، يمكن تكون عربيتهم عطلت ودول ستات ولوحديهم، والوقت متأخر». دار حاتم

بالسيارة في أول انحناءة ليعود إليهما، وهو عائد بالسيارة وجدهما على الجانب الآخر، والعربة نصف النقل متوقفة أمامهما وقاطعة الطريق عليهما، وقد نزل منها الرجال الثلاثة ومع أحدهم سلاح يوجهه إليهما..

توقف حاتم على جانب الطريق وهو يشير إليهما، فقفز الجنود الثلاثة من السيارة، وانطلقوا يعدون على أقدامهم باتجاه الجانب الآخر من الطريق ومعهم حاتم، وفور أن رآهم الرجال الثلاثة وهم يعدون باتجاههم تركوا السيدة وجذبوا الفتاة من شعرها واحتمى أحدهم بها، في حين هاجم حاتم وخالد وأحمد الاثنين الآخرين ونزعوا سلاحهما، إلا أن الآخر الممسك بالفتاة صرخ فيهم أن يتركوا زميليه وإلا ذبح الفتاة، ووضع سكينا ضخمة على رقبة الفتاة..

فتراجع الجميع خوفا على حياة الفتاة، وأمها تبكي في مرارة، وقال الآخر: اتركونا نرحل وسندعها لكم، وأين زميلكم الرابع؟ والتفت حوله ينظر على زميلهم وهو ما زال ممسكا بعنق الفتاة، وقال لهم: لا أريد حركات بطولية هنا، وإلا ستدفع هي الثمن، هل تسمعونني؟

وشدد من ضغط يده على عنق الفتاة فصرخت، فظهر محمود من خلف السيارة واجما، وألقى سلاحه أرضا في حنق، وقد كان يحاول الدوران خلف السيارة لمفاجأة المجرم، إلا أنه انتبه أولا لاختفائه، فاضطر للظهور لكي لا يتسبب في إيذاء الفتاة..

وركبوا سيارتهم وهم يجذبون الفتاة معهم حتى أدار أحدهم محركها، وركب الآخر، ثم تراجع المجرم بالفتاة حتى السيارة، ثم دفعها في غلظة فكادت تسقط على وجهها، إلا أن حاتم أسرع يلتقطها بين ذراعيه، وانطلقوا بعربتهم نصف النقل بسرعة مبتعدين.

أسرع حاتم والجنود يطمئنون على السيدة الكبيرة وابنتها، كانتا بخير فيما عدا الفزع الذي أصابهما، وانهارت الصغيرة في البكاء، وشرعوا يهدئون من

روعهما، وركبت السيدة السيارة وطلبت من حاتم أن يظل خلفها حتى يصلوا إلى القاهرة، خوفا من أن يوقفوهما مرة أخرى.
وانطلقت المسيرة مرة أخرى حتى وصلت إلى الوحدة قبل الزعفرانة بقليل؛ حيث نزل الجنود إلى وحداتهم، وانطلق حاتم مع السيدة حتى الكمين، قرب مدخل السويس؛ حيث توقفوا هناك، نزل حاتم من سيارته مع السيدة وابنتها ليقدموا بلاغا إلى الضابط في الكمين.
استمع الضابط إليهم، وسأل حاتم: هل كانت هناك مواصفات معينة للسيارة أو لهم؟
قال حاتم: كانت السيارة موديل ٢٠١١ بيضاء بها خط أزرق، كانت من دون نمر، وكان أحدهم يحمل سلاحا آليا..
قال أحد الجنود المرافقين للضابط في الكمين: «أيوه يا باشا، اللي كانت واقفة من نص ساعة بتمون في البنزينة الناحية التانية».
نظر إليه الضابط بغيظ ولم ينطق حرفا، في حين نظرت إليهم السيدة بدهشة، في حين قام حاتم بقطع الورقة من أمام الضابط التي كان يكتب بها المواصفات، ومزقها وقال للسيدة الكبيرة: «يلا بينا يا أمي، مالوش لازمة البلاغ».
واصطحبها واتجها إلى سيارتهما، واستوقفته السيدة الكبيرة وأخرجت من حقيبتها مبلغا نقديا وحاولت إعطاءه لحاتم، فقال لها: لماذا تفعلين هذا؟ هل حين عدت إليك كنت أطمع في مكافأة منك؟
شعرت السيدة بالخجل، وأطرقت برأسها وهي تقول: أنا آسفة يا بني، لكني أردت مكافأتك، ولم أدرِ ماذا أفعل لإنقاذك إيانا أنت وهؤلاء الجنود الذين كانوا معك..
قال لها حاتم: لا يا أمي، نحن مصريون في النهاية، وكلنا يعمل ما يمليه عليه ضميره، يكفيني دعواتك لنا يا أمي..

قالت له السيدة باسمة وهي تربت على كتفه: الله يكثر من أمثالك ويوسع لك رزقك ويحفظك من كل شر أنت وكل أهل بيتك، ولا يريك سوءا في شخص تحبه يا بني كما أنقذتني أنت وهؤلاء الجنود أنا وابنتي.. جزاك الله خيراً عنا..

شكرها حاتم وركب سيارته، واستدار عائدا إلى بلدته وقد اطمأن أنها تجاوزت المكان المقفر، وأصبحت على طريق سريع مليء بالسيارات، ولن تواجهها مشاكل مرة أخرى، ولن يتعرض لها أحد، ولوَّح لها بيده ورحل في طريقه إلى منزله ليرتاح قليلا قبل مطلع الشمس، وقد أصبحت حياته الآن تبدأ مع غروب الشمس، لم يعد يعنيه استيقاظه مبكرا في شيء..

لكن هل هذه ستكون النهاية وسيظل يعيش على الرحلات هذه، أم أن غدا سيعود إلى عمله وستعود الأمور كما كانت؟

كان الغد يخفي له الكثير، لكن هل ما يخفيه الغد أسوأ أم أفضل؟ في الغد سوف يعرف كل شيء..

obeikan.com

الفصل الثالث
غواص تحت الطلب

عاد حاتم من سفره مرهقا، وكانت أمل نائمة، فغيَّر ملابسه في هدوء دون أن يزعجها، وبمجرد أن وضع رأسه على الوسادة ذهب في سبات عميق، ولم يشعر إلا في الصباح، وحين استيقظ وخرج من الغرفة وجد أمل قد أعدت لهما الإفطار، وجلست صامتة على غير عادتها..

فسألها حاتم: هل حدث شيء يا عزيزتي؟

قالت له في شرود: لا شيء يا عزيزي..

مد أصابعه يداعب خدها، فلم تضحك، بل أزاحت يده في رفق ولم تتكلم، قال لها حاتم في قلق: ما الأمر يا عزيزتي؟ أنتِ مختلفة اليوم، ماذا حدث؟

قالت له أمل دون مواربة: لقد شعرت بك في الأمس حين عدت، أين تذهب كل ليلة؟ منذ متى وأنت تسهر مع أصدقائك حتى الفجر؟

قال حاتم في ارتباك: ليس ثمة شيء، إننا فقط نسهر نلعب الورق على المقهى، وهذا ما يضيع الوقت ليس أكثر، ماذا تظنين أنني أفعل؟ هل تعتقدين أنني تزوجت عليكِ مثلا؟

وضحك فضحكت على الرغم منها، وقالت له ضاحكة: لا أثق بك، ربما تفعلها، من يأمن للرجال.. كما تقول والدتي..

قال حاتم ضاحكا: حماتي العزيزة قالت هذا، يبدو أنني سأغير عنوان شقتنا وتليفوناتنا، لكي أقطع علاقتك بهم، ما دامت حماتي هي التي قالت لكِ هذا..

لكزته في كتفه مداعبة وهي تقول له: لا تستطيع، أنت تعرف أن أمي تحبك، إلا أنني كنت أسمعها تردد هذه المقولة كثيرا قبل زواجنا..

قال لها حاتم: ها أنتِ قلتِ قبل زواجنا، لكن بعد زواجنا لا أعتقد أنها يمكن أن تقول هذا، أنتِ تعلمين أن حماتي تحبني ربما أكثر منك.. وضحكا معا..

قالت له أمل: أعلم هذا وأستغرب له، لأول مرة أرى أمًّا تحب زوج ابنتها، والدليل على هذا أنها حين حدثتني في المساء أمس، أخبرتني أن هناك صديقة لها أخبرتها أنهم يبحثون عن مدرب غوص في شرم الشيخ، إلا أن أمي أخبرتها أنك تعمل في الغردقة بالفعل..

كاد حاتم يقفز من مقعده، إلا أنه تمالك نفسه وقال لها في صوت حاول أن يجعله هادئا: لكن عملي في الغردقة سيتوقف لفترة قد تصل إلى ٦ أشهر حتى ينهوا التجديدات، وهذا وقت طويل، وربما لو والدتك حدثتهم لأمكنني أن أصل معهم لاتفاق حتى لو أعمل عندهم هذه الفترة، حتى ينتهوا من تجديد الشركة..

قالت له أمل: لم أعلم أن التجديدات هذه ستستغرق هذا الوقت كله، حسنًا، هيا نتصل بأمي ونأخذ منها رقم صديقتها ونحدثها.. وقامت بالاتصال بوالدتها وأعطتها رقم الصديقة، التي اتصل بها حاتم على الفور، وأخبرها أنه متفرغ لفترة، ويمكنه أن يعمل مع زوجها، لو كانوا ما زالوا يبحثون عن مدرب غوص..

أخبرتهم السيدة بالإيجاب، وقالت لهم حسنا، يمكن لحاتم الذهاب إلى زوجها في الغد في شرم الشيخ، وأعطتهم عنوان القرية السياحية التي يعمل بها، وأنهوا المكالمة، وجلس حاتم يفكر في أن الأمر ربما يكون مثل عمله الأول، وهو بالتأكيد سيكون أفضل من عمله الجديد كسائق على الطريق في أوقات الفراغ.

وقام بإعداد حقيبته، وفي اليوم التالي أوصل أمل إلى منزل والديها، وانطلق هو في رحلته إلى شرم الشيخ، وهو يمني نفسه بعمل جيد، ووصل إلى هناك قرب مغيب الشمس، وانطلق يبحث عن القرية التي أعطوه عنوانها ووصل إليها في سهولة، وما زاد سروره أنه وجدها فخمة ومعروفة بالاسم هناك..

وقابل هناك السيد جاسم، زوج السيدة ناهد، صديقة حماته، التي رشحته للعمل مع زوجها، كان السيد جاسم رياضي الجسد، وفي أواخر العقد الخامس من عمره، ورحب به واستقبله في ترحاب، ونزلا معا إلى مطعم القرية؛ حيث أصر على أن يتناول حاتم الطعام أولا؛ فهو قادم من سفر ولا بد أنه يتضور جوعا بعد هذا المشوار الطويل..

وبالفعل كان حاتم جائعا جدا، اعد له السيد جاسم مأدبة سمك رائعة، وبعد أن انتهيا من طعامهما، صعدا إلى مكتبه وجلسا يحتسيان أقداح الشاي، وسأله السيد جاسم عن عمله السابق، وعن فترة عمله في الغطس، وبعض الأسئلة الفنية المعدة سابقا، لمعرفة مدى خبرته، وشعر حاتم أن إجابته مرضية من تعبيرات السيد جاسم.

في النهاية أخبره أنه يمكنه أن يتسلم عمله في الصباح، وشرح له أن الأمر لن يكون غطسا مع سياح كما اعتاد هو، لكن ستكون دروسا عن الغطس وأساسياته لمجموعة شباب وفتيات، عليه في البداية بالشرح النظري، وبعدها التطبيق العملي.. سيكون الأمر أشبه بكورس مدته ثلاثة أشهر..

واتفقا على المبلغ، لم يكن مجزيا جدا، إلا أنه معقول مقارنة بالمجهود المبذول، وافق حاتم، فلم تكن أمامه خيارات أخرى، وكان ينزل إجازة قصيرة ٤ أيام كل شهر، وفي نهاية الثلاثة أشهر، استدعاه السيد جاسم بعد انتهاء الكورس، وأعطاه باقي مستحقاته، وشكره على قدومه، وأخبره أنه سيحتفظ برقمه، وإن جد شيء سيتصل به، وكان حاتم يرى أن الأمر ما

زال ضعيفا، والإقبال من السائحين محدود؛ نظرا لعدم استقرار الأوضاع الأمنية..

عاد حاتم إلى منزله في نهاية الشهر الثالث، وقضى يومين لا يخرج من المنزل، حتى إن أمل تعجبت، وسألته: ألن تخرج لتلتقي أصدقاءك؟

قال لها حاتم: سأخرج في الغد، فصديقي الذي يجمعنا معا ليس موجودا اليوم، في الغد سأذهب للسهر معه، وجلسا معا يشاهدان التلفاز، وفي اليوم التالي خرجا معا في الصباح وذهبا ليقضيا اليوم عند حميه، وحين عادا إلى منزلهما قام بتغيير ملابسه وذهب إلى مقهى المحطة وكانت تنتظره مفاجأة..

obeikan.com

الفصل الرابع
غواص تجاري

حين نزل حاتم إلى مقهى المحطة، لم يكن يتوقع ما وجده.
كان هناك بدلا من العربة أربع عربات متوقفة، وبجوار كل عربة صاحبها، وكان هناك شخص ينادي كل فترة: مصر، حد نازل مصر؟ وقف حاتم مشدوها: منذ متى يقف كل هؤلاء هنا؟ منذ ثلاثة أشهر كان يقف هنا وحده، ذهب إلى أحدهم وحاول التقرب إليه والحديث معه، علم أن الرجل المسئول عن التحميل هو أحمد المنوفي، وهو المسئول عن الموقف القديم، الذي علم أنه كان في الجانب الآخر من الطريق..
وعلم حاتم أنهم يعملون على سياراتهم الخاصة منذ زمن، لكن اختلفت الأماكن والجهات، فلم يكونوا يتوجهون إلى القاهرة، لكن إلى الغردقة وشرم الشيخ، ولقد سلم أحمد هذا العمل هناك لزميل له، وأتى إلى هنا ليقوم بعمل «الوردية»، لكن إلى القاهرة..
وذهب حاتم إلى أحمد المنوفي وشرح له الأمر، وأخبره أنه يريد أن يوصل أشخاصا إلى القاهرة، ويريد أن يعلم ما المطلوب منه.
نظر إليه أحمد المنوفي كأنه نخاس يفحص أحد العبيد الذي يوشك على شرائهم، ثم قال له: حسنا، ستجلس على المقهى وتنتظر دورك في «التحميل»، ستسافر بـ٤ أشخاص ستدفع لي ٣٠ جنيها عن الأربعة، وستجلس وأنا سأحضر لك الزبائن من الموقف الآخر الذين يريدون السفر إلى القاهرة، وهذا واجب مني لك، لو ذهبت إلى الموقف الآخر فلن تدفع

أقل من ٥٠ جنيها «كارتة»، هذا فضلا عن أنهم لن يتركوك تعمل بسيارتك الملاكي وسطهم..

استمع إليه حاتم في صمت، كان يبدو على الرجل الحرفية الشديدة، ويبدو على حاتم الجهل الشديد بمثل هذا العمل؛ لهذا رضخ لمطالبه، وجلس في صمت ينتظر على المقهى، وبالفعل لم تمضِ ساعة حتى كانت عربتان قد انطلقتا إلى القاهرة، من الذين يأتون إلى الموقف الآخر، والذين يأتون إلى هذا الموقف، و«المنوفي» يهتف بصوته الجهوري: «يلا يا أساتذة نفر واحد مصر، نفر واحد مصر».

وأتى شاب في أوائل الثلاثينات من عمره، أسمر البشرة، مجعد الشعر، يرتدي زيا بسيطا، إلا أنه نظيف، وطلب من «المنوفي» سيارة تقله إلى القاهرة، فأشار له على سيارة حاتم، وذهبا إلى السيارة وركبا السيارة، وخلال ربع ساعة كان قد أتى زبون آخر، وقال الشاب لحاتم إنه في عجلة من أمره، يمكنه أن يدفع الفارق ولننطلق الآن، لا داعي للعطلة. أشار حاتم لـ«المنوفي» أن العدد اكتمل..

وانطلق إلى الطريق.. بعد انطلاق العربة بنصف ساعة أجرى الراكب المجاور له اتصالا هاتفيا، وكان يكلم من يدعى «عبده نكلة»، وقال له: «لا يا معلم، ١٤ ألف في الطن قليل، لن أقبل بأقل من ١٨، أنت لا تتخيل المجهود والمصاريف المدفوعة لكي أخرج لك هذه الكمية كلها من البحر من الألومنيوم»، وبالطبع لم يسمع رد «عبده نكلة»، لكن لفت الكلام انتباهه، أي ألومنيوم هذا الذي يستخرجه من البحر؟

وانتظر حتى أنهى مكالمته، ثم بدأ يتجاذب معه أطراف الحديث، وعرَّفه أنه كان يعمل غواصا سياحيا قبل الثورة، وتعرف على الرجل وعرف أن اسمه أحمد الصاوي، وأخبره أنه أيضا يعمل غواصا، لكنه غواص تجاري.. وعلى الرغم من أن حاتم يعمل في الغوص منذ سنوات فإن المصطلح جديد

عليه فسأله: ما معنى غواص تجاري؟

أخبره أحمد أن عمله مثل عمل فني اللحام تحت الماء، الذي هو فني في الأساس، إلا أنهم يجيدون الغوص ويقومون بعملهم تحت الماء، لكن أحمد عمله يختلف؛ فهو يقوم بحمل أدواته والغوص بها ليفك قواعد النحاس والألومنيوم من السفن الغارقة، ويقوم ببيعها، وليس شرطا السفن الغارقة، أحيانا بعض السفن تلقي بـ«كونتينر» كامل في الماء لتخفف من حمولتها إذا شعرت أن هناك خطرا على السفينة من ثقل الحمولة في أثناء العواصف..

وشرع يحكي له أنه ذات مرة وجد صندوقا ضخما (كونتينر) ملقًى في أعماق البحر الأحمر، فأحضر أدواته وظل يعمل عليه لفترة طويلة حتى نجح في فتحه أخيرا، ليجد بداخله أطقما كثيرة من أغطية الوسادات والفراش، ما كاد يصيبه بالفالج من الغيظ بعد هذا التعب كله، فالأقمشة مع الماء المالح تكون شبه منتهية بمجرد أن تخرج إلى الهواء، تتمزق بسهولة، ولا تصبح لها قيمة، إلا أنه ليس كل مرة يكون التعب من دون فائدة؛ فذات مرة أخرج من سفينة غارقة كمية ضخمة من الألومنيوم، وباعها وحصل منها على نقود كثيرة للغاية..

كان حاتم يستمع إليه مشدوها؛ فطوال عمره يعمل غواصا سياحيا ولم يعلم من قبل أن هناك غواصين متخصصين في هذه الأمور، كان يعلم أن هناك من يغوص ويستولي على الأشياء من السفن الغارقة، لكن الأشياء ذات القيمة، ولم يعلم أن هناك من يفك أجزاء من السفن أو يبحث في الصناديق الغارقة ويبيعها لتجار الخردة، وأيضا هي مربحة جدا..

وظلا يتحدثان حتى وصلا إلى القاهرة، وهناك أخذ أحمد رقم حاتم وأخبره أنه سيتصل به في الصباح ليتناقشا معا في عمل مشترك، بما أن حاتم لا يعمل الآن، ويمكنهما أن يصلا لاتفاق مُرضٍ في عمل مشترك يحقق الربح

للطرفين، لكن أحمد كان ينوي العودة إلى بلدته، إلا أنه قرر المبيت في القاهرة هذا اليوم ليكون موجودا في الصباح، وودع أحمد حاتم وانصرف، وقام حاتم بإيقاظ الراكب في الخلف، الذي نام من أول الطريق، ليخبره أنهم وصلوا..

وبعد أن نزل الراكب الآخر، فكر أحمد أين يقضي ليلته، وقرر أن يذهب إلى أحد مقاهي الحسين التي لا تنام ويجلس هناك حتى الصباح أو يبحث عن أي فندق معقول يقضي به ليلته هناك، وذهب إلى هناك وجلس على مقهى قليلا، وأخذ جولة في الحسين، حتى وجد فندقا متواضعا في شارع صغير متفرع من الحسين، فعرج على محل بقالة قرب الفندق اشترى لنفسه منه عشاء بسيطا، وصعد إلى غرفته في الفندق، وتناول عشاءه، وأرسل رسالة إلى زوجته يخبرها فيها أنه في مشوار عمل مع صديق له، في الغردقة، وأن الوقت تأخر وأنه سيضطر للمبيت، وفي الغد عندما يعود سيشرح لها ولا داعي لأن تقلق عليه، إنه بخير..

ونام حاتم من التعب ومن التفكير، وفي الصباح استيقظ على رنين هاتفه المحمول، فقام من نومه ليجد أحمد الذي يطلبه ويسأله إن كان يستطيع لقاءه في مقهى المحطة في رمسيس، أجابه حاتم بالإيجاب، وذهب إلى هناك بعد نصف ساعة، وجلس على المقهى، وبعد قليل حضر أحمد.. وبعد تبادل التحية، قال أحمد لحاتم: أريدك أن تغوص معي..

قال له حاتم: لا مشكلة عندي، لكن أعطني خلفية عن طبيعة العمل..

قال أحمد: إنه مُجزٍ أكثر مما تتخيل، سنقوم بالغطس في منطقة قرب الزعفرانة، لفك بعض الأسلحة من مدمرة إسرائيلية غارقة من أيام الحرب هناك، ولم تُنتشل، ولم يستفد منها أحد، لقد غطست من قبل وعاينتها، إنها مليئة بالقذائف الصاروخية التي أفسدها الماء بالطبع، ولهذا لم يحاول أحد انتشالها، إلا أنها تحتوي على كميات وافرة من النحاس الأحمر، كل

قواعد الصواريخ هذه مصنوعة من النحاس الأحمر، وهو غالي الثمن، كل ما علينا هو أن ننزل معا إلى هناك وأنا عليَّ أن أحل هذه القواعد، وأنت عليك أن تساعدني في تخزينها..

قال حاتم في قلق: ولكن أليس هذا مخالفا؟

قال له أحمد في لهجة إغراء: لقد حاولنا الحصول على تصريح بالغطس هناك إلا أنه قُوبل بالرفض؛ لهذا سنعمل في المساء، ولا تنسَ أن الربح بها أكبر بكثير من الربح من فك بعض قطع الألومنيوم من السفن الغارقة وبعض المتعلقات الخفيفة الأخرى.. كما أنها تحتوي على كميات من القصدير الصافي، وأعلم أنه غالٍ للغاية.. وستأخذ في هذه العملية عشرين ألف جنيه، ما رأيك؟

قال له حاتم: أعطني وقتا لأفكر، الأمر به مخاطرة كبيرة..

قال أحمد: ليس كما تتخيل، هذا عملي، أنا سأختار الوقت المناسب، والمكسب يستحق، ويمكننا رفعه إلى أربعين ألفا، ماذا قلت؟

قال له حاتم في تردد: متى ستتم هذه العملية؟

قال له: بعد أسبوع، سأعد كل شيء وسأطلبك لنلتقي مره أخرى، ونتناقش في بعض التفاصيل الفنية، هل أعتبرك معي؟

أومأ له حاتم برأسه بعلامة الإيجاب، وتصافحا وانصرفا، وأخذ حاتم سيارته وانطلق عائدا إلى بلدته وهو يفكر، هل يخبر زوجته بالأمر، أم يحتفظ به لنفسه، إنه لم يخبرها بأمر القيادة على الطريق؛ لأنه خجل من أن يخبرها أنه يعمل سائقا، لكن الأمر هذه المرة كبير، ومن حقها أن تعلم، وظل يفكر هل يخبرها أم لا، وظل السؤال يدوي في ذهنه هل يخبرها أم لا.

الفصل الخامس
الرحلة

كان حاتم يفكر.. ماذا سيخبر به زوجته عندما يعود؟ ثم توصل إلى أن يخبرها نصف الحقيقة، واستقر على هذا الأمر، وحين وصل إلى بيته كان الوقت ظهرا، كانت زوجته تعد الطعام، دخل عليها المطبخ، وقبَّل وجنتها وهي واقفة غير منتبهة له، فقفزت من مكانها فزعة.. لكنها ابتسمت حين رأته، وقالت له، لقد أخفتني، أين كنت منذ الأمس؟ وكيف تسافر دون أن تعلمني؟

قال لها حاتم، لقد أتى الأمر فجأة، وكان لا بد من السفر خوفا من أن أفقد الفرصة.

قالت له في دهشة: أي فرصة؟

تنحنح حاتم وقال لها: أنتِ تعلمين يا عزيزتي أنني من دون عمل منذ شهور، بسبب تجديدات الشركة التي لا أعلم متى ستنتهي، ولدينا التزامات كثيرة، غير مصاريفنا الشخصية، ولم أحظَ بأي عمل سوى العمل المحدود الذي جلبته لنا صديقة والدتك، وحتى هذا نقوده أوشكت على النفاد..

قالت له: أجل، أعلم هذا، لكن هل وجدت عملا مع صديقك هذا؟

قال حاتم: أجل يا عزيزتي، لقد وجدت عملا يمت لعملي السابق في الغوص، لكنه نوع جديد، إنه غوص تجاري.. وشرع يحكي لها الجزء الأول من العمل، دون أن يخبرها أن الأمر به مخاطرة، وأنه يعتبر غير قانوني، لكي لا تخاف عليه وتثبط من عزمه على ما ينوي فعله..

رحبت بالفكرة حين علمت أنها عمل مربح وليس به خطر، وهو أخبرها أنه عمل مربح، لكنه لم يخبرها بأمر المبلغ الضخم حتى لا يراودها الشك، ومضت عدة أيام واتصل به أحمد، وأخبره أنه موجود في كافتيريا المحطة وينتظره، وذهب حاتم إليه وجلسا يتحدثان في التفاصيل، وأراه خريطة للمدمرة الحربية وعلم أنها على عمق ١٠٠ متر تحت الماء، وأراه خريطة مرسومة لها..

قال حاتم لأحمد: لكن العمق كبير، وسنكون بحاجة لمعدات خاصة وأسطوانات خاصة مملوءة بالهيليوم مع الأكسجين بدلا من النيتروجين؛ لأنه عند الغوص عميقا في الماء فإن الضغط يزداد ويزيد احتمال ذوبان النيتروجين في الدم، وهذا يؤثر على الجهاز العصبي وقد يسبب الغيبوبة على عمق ١٠٠م، ولهذا السبب لا تحتوي أسطوانات التنفس في حالة الغوص العميق على نيتروجين، وإنما يوضع مكانه الهيليوم والهيدروجين. وفي المقابل، يجب أن يصعد الغواص ببطء حتى لا تتشكل فقاعات غازية في دمه.

ابتسم أحمد ابتسامة هادئة من منطلق «أنت لم تغلبني»، وقال له: أعلم هذا جيدا، لقد غصت هناك من قبل، وليست أول مرة لي، أغوص على أعماق كبيرة، وأعلم أنه بعد عمق ٨٠ مترا لا بد من الأسطوانات الخاصة، وإلا تحول الأكسجين إلى ثالث أكسيد الكربون، وأصبح ساما، هذا كله أعلمه، واحتطت له، وحصلت بالفعل على ١٠ أسطوانات خاصة بمعرفتي، لا تقلق..

قال حاتم: لست قلقا، فقط كنت أطمئن أن كل شيء محسوب، والآن متى سنغطس؟

قال أحمد: في الغد، سأنتظرك هنا، وسآتي ومعي عربة كبيرة لتقلنا إلى هناك، وبها كل ما نحتاجه، في الساعة الـ١٠ مساء سأنتظرك. وانصرف كل

منهما، وفي اليوم التالي في الموعد حضر حاتم وجلس ينتظر أحمد حتى أتى وركب معه السيارة، وانطلقا في طرق متعرجة، وتفاديا نقاط المراقبة في الزعفرانة، وكان معهما شخص ثالث عرف حاتم أن اسمه حامد، وهو شريك أحمد وسيكون عليه مراقبة الأجواء من أعلى السطح..

ووصلوا إلى هناك؛ حيث استقلوا «لانش» صغيرا، ووضعوا عليه ملابسهم وأسطوانات الأكسجين، وبعض المعدات التي سيحتاجونها، ودخلوا به إلى العمق، حيث توقف حامد وقال لهما: هذا أقرب مكان للموقع، لن نقف فوقه مباشرة حتى لا يكشفنا حرس السواحل، سيكون عليكما أن تسبحا المسافة الباقية تحت الماء. ارتديا زي الغوص، وقال أحمد لحاتم موضحا: لن نشعل الكشافات إلا على عمق عشرة أمتار، لكي لا يظهر ضوؤها على السطح، وسنحمل معنا لفات من الحبال، لكي نربطها خارج المدمرة قبل أن ندخل، لنستهدي بها في الخروج منها..

أنزل حامد برميلا ضخما في الماء وربطه بحبل وربط به أنبوبة أكسجين، وشرع يملؤه بالماء حتى غاص إلى أسفل، فسأله حاتم: ما هذا البرميل؟

قال له أحمد: تحت سترى كل شيء، نحن هنا لا نستطيع أن نأتي بمركب ضخم به ونش وإلا لفتنا الأنظار إلينا، كما أن الحمولة ستكون ثقيلة، بالإضافة لضغط الماء، فلن يستطيع حامد أن يسحبها من أسفل إلى هنا، أنبوبة الأكسجين هذه سنقلبها، ونفتحها بعد أن نملأ البرميل فترفعه إلى سطح الماء مع جذب حامد، ستسهل عليه إخراجه من الماء بعد وصوله.. هيا بنا.

وغاص الاثنان في الماء، ونزلا إلى عمق ١٠ أمتار على مقياس الأعماق في يد كل منهما ثم بدآ إشعال الكشافات لتضيء لهما ظلمة القاع الحالكة، واستمرا في الغوص حتى وصلا إلى عمق ٩٥ مترا، وتوقفا عند القاع، وأشار أحمد لحاتم بأن يتبعه ويسبح في اتجاه الشمال، وحاتم خلفه، حتى وصلا

إلى المدمرة.. كانت عملاقة في الحجم، طولها يتجاوز الـ٥٠ مترا..
قام أحمد بربط الحبل في صخرة قريبة من المدمرة، ودخل وحاتم وراءه، وهما يجذبان الحبل وراءهما، وبينما هما يسبحان في الداخل كانت هناك أسماك صغيرة، فرت من أضواء مصابيحهما، حتى وصلا إلى قاع المدمرة؛ حيث كانت تتراص كميات من الأسلحة لم يسبق لحاتم رؤيتها، إلا في الأفلام..
أخرج أحمد حقيبته وأدواته، وبدأ يحل القواعد النحاسية الحمراء للصواريخ، لم يكن الأمر سهلا؛ فكل صاروخ حله يستغرق ما يقارب ربع ساعة، وبمساعدة حاتم نجحا في حل ما يقارب الـ٧ قواعد، وبعض القواعد المعدنية المصنوعة من القصدير النقي، المثبتة في المدمرة الحربية..
وأشار حاتم إلى أحمد بقرب نفاد الأكسجين وأن عليهما الصعود الآن إلى السطح، وأخذا ينقلان القواعد المعدنية إلى خارج المدمرة إلى البرميل حتى انتهيا، فقاما بفتح الأسطوانة التي اندفعت بقوة الأكسجين المضغوط بداخلها إلى الأعلى، وجذبت معها البرميل إلى أعلى، وقام أحمد بجذب الحبل مرتين قبل فتح الأسطوانة لينبه حامد أن البرميل في طريقه إلى السطح..
وسبحا خلفه في هدوء، وهما يراقبانه يسبقهما إلى أعلى، حتى وصلا إلى السطح في النهاية، ووجدا حامد قد ربط البرميل بجزء بارز من المركب، وساعدهما في الصعود إلى السطح، ونزع ملابس الغوص، وقال لهما: يبدو أن الغوص الأول كان موفقا..
ضحك أحمد في سعادة، وقال: أجل يا صديقي، ما زال المركب مليئا، لكن اليوم ما استخرجناه لن يقل ثمنه عن عشرين ألفا، لقد وجدنا ما توقعناه وأكثر.. لقد فككنا بعض الأجزاء التي تتكون من القصدير النقي، وهذا وحده أعلى سعرا من النحاس الأحمر الذي حصلنا على بعضه أيضا، وما

زال هناك الكثير..
كان جو من المرح يسود المكان، وسأله أحمد: لماذا لا تتكلم يا صديقي؟
قال حاتم: لا شيء، فقط أشعر أني مرهق قليلا..
قال أحمد: يبدو أنك لم تغُص منذ فترة، كما يبدو أنك غير معتاد على العمق الشديد، في غوصك السياحي، لكن ستكون بخير، إنها أول مرة، وفي المرة المقبلة ستكون أفضل، سأتصل بك بعد يومين، لأعطيك مبلغا من بيع أول دفعة لنا من المدمرة، وحين نلتقي سنحدد موعد الغوص المقبل..
وأوصلاه إلى منزله، وتركاه ورحلا وصعد إلى منزله؛ حيث أخذ حماما ساخنا ونام في عمق.. وفي الصباح سألته أمل عن أحوال العمل الجديد، وهل كانوا موفقين، أجابها بالإيجاب، ولم يدخل في تفاصيل كثيرة معها، ومضى اليومان وأوفى أحمد بوعده واتصل بحاتم وطلب منه ملاقاته عند المقهى الخاص بالمحطة..
جلسا يحتسيان أقداح الشاي على المقهى، وأعطى حاتم مظروفا، وقال له إن به ٥ آلاف جنيه تحت الحساب، من أول دفعة بيعت من البضاعة، وأخبره أن الأمر ما زال بحاجة للكثير من الغوص، وحدد معه موعدا آخر في نهاية الأسبوع، ومضى كل منهما..
وتكرر الأمر مثل المرة السابقة، إلا أن حاتم كان قد بدأ يعتاد الأمر، فلم يشعر بكم الإرهاق الذي كان يشعر به أول مرة، وفي المرة الثالثة وجد حاتم شخصا غريبا غير حامد معهما اسمه فارس، فسال أحمد عن حامد. قال أحمد في اقتضاب: لم يأتِ، يبدو أنه مشغول بحساباته، فارس سيساعدنا بدلا منه، ولم يتطرق إلى الكلام عن حامد مرة أخرى..
وذهبوا إلى المكان، وارتديا ملابس الغوص ونزلا إلى الماء، وفي العمق حين وصلا إلى المدمرة، وجدا برميلا آخر بجانب المدمرة ممتلئا إلى نصفه بالقواعد النحاسية، وأشار حاتم إلى أحمد في تساؤل، فأشار له أحمد بأنه لا

يفهم، ودخلا معا إلى المركب وكان هناك حبل مربوط في الصخرة في الخارج قرب المدمرة، سبحا معه إلى نهايته..

وجدا بالداخل اثنين من الغواصين يعملان معا، في حل إحدى قواعد الصواريخ الضخمة، وحين انتبها إليهما، أخرج كل من الغواصين من ثيابه خنجرا كبيرة وهاجماهما، تفادى أحمد إحداهما بصعوبة، في حين حاول حاتم أن يتفادى الأخرى إلا أن الخنجر أصابت ذراعه في طرفها فأدمتها..

وسرعان ما اشتبك أحمد مع الآخر ونجح في قطع خرطوم الأكسجين الخاص به واستولى منه على الخنجر وتركه يختنق، وأسرع يحاول مساعدة حاتم الذي أوشك الآخر على أن يطعنه بخنجره، إلا أن أحمد طعنه في صدره طعنة نافذة، واصطحب أحمد وخرجا من المدمرة، وسبحا إلى أعلى وأخذا معهما البرميل نصف الممتلئ بعد أن فكَّا الحبل الذي كان يربطه وربطاه بحبلهم هم..

وصعدا إلى أعلى، حتى وصلا إلى سطح المركب، وساعدهما فارس في الصعود، وسألهما: ما الأمر؟ لماذا صعدتما سريعا؟ ورأى الدم ينزف من ذراع حاتم، فسألهما وهو يخرج حقيبة إسعافات أولية معهم ويضمد جرح حاتم في سرعة: ماذا حدث؟ قال أحمد وهو يلهث: إنه حامد الوغد، لقد باعنا عندما اختلفنا معا على العمولة..

لقد أبلغ الصياد عن مكان المدمرة مقابل نسبة أعلى بالتأكيد، ووجدنا رجليه بالأسفل وكادا يفتكان بنا إلا أننا نجحنا في الإفلات منهما بصعوبة وجرح حاتم في ذراعه، كان حاتم يستمع إلى هذا كله صامتا، وهو لا يتخيل أنه كان يمكن أن يموت منذ دقائق بالأسفل، كانت الصدمة تمنعه من الكلام.. في حين قال فارس في قلق: لكن أين مركبهم؟ أنا لا أراه.

قال أحمد: لا بد أنه فوق المدمرة مباشرة، إنهم حمقى بلا عقول، سيجلبون الشرطة وحرس السواحل إلى المكان، ولن يستطيع أحدنا أن يستفيد بشيء،

وسنخسر كلانا، كله بسبب حامد الأحمق هذا..
تكلم حاتم أخيرا، وقال: لقد قتلتهما، قتلتهما بدم بارد يا رجل، كما لو كنت تذبح دجاجًا..
قال له أحمد في سخرية: وماذا كنت تنتظر يا مرهف الحس، أن أتركهما يقتلاننا أولا، ثم نحاول التفاهم معهما؟ أنت لا تعرف رجال الصياد، إنهم أوغاد، أنت جديد على عالمنا، لكن في الغد ستعتاد هذا..
قال حاتم في غضب: لن أنتظر إلى الغد، يكفيني ما لاقيته اليوم، لن أعود للغوص معك مرة أخرى.. وقطع حديثه صوت صافرة مراكب حرس السواحل، وهي تقترب من مكان المدمرة الغارقة، فهتف أحمد في غضب: اللعنة، الحمقى كشفوا كل شيء، انطلق يا فارس من هنا سريعا قبل أن يلمحونا..
وانطلق فارس بسرعة، وهو يحاول الابتعاد عن مجالهم، حتى لا يروهم، وسمعوا صوت طلقات نارية فعرفوا أن الحرس اشتبك مع رجال الصياد، حتى وصلوا إلى الشاطئ، فأسرعوا يتخلصون من كل ما يتعلق بالغوص على الشاطئ ودفنوا حمولتهم الثمينة في منطقة بعيدة قليلا عن الشاطئ وعلموها ليعودوا ويأخذوها بعد أن تهدأ الأمور، وارتدوا ملابسهم وساروا بسرعة عادية غير لافتة للنظر حتى خرجوا من مكمن الخطر..
وعند أول الطريق خارج منطقة الزعفرانة، تنفسوا الصعداء، وقال أحمد لحاتم: لا تغضب يا صديقي لقد ذهبت المهمة. سنضطر للاكتفاء بما حصلنا عليه، وسأعطيك نصيبك من الباقي الذي أخذناه اليوم، عندما نعود لأخذه من هنا.
قال له حاتم: لا أريد شيئا، فقط أرجوك لا تُدخلني في مداهمات أخرى مع الشرطة والعصابات هذه، أنا يكفيني ما لاقيته اليوم، كل ما أريده منك ألا تطلب مني عملا آخر من هذا..

قال له أحمد: سأتركك تهدأ، وسنتكلم فيما بعد. لم يعلق حاتم على كلامه، وحين نزل عند مقهى المحطة حيث ترك سيارته، كان أول ما عمله أن أخرج هاتفه وألقى بالخط الذي به بعيدا؛ فهو لا يريد التعامل معه ولا يريده أن يتوصل إليه مرة أخرى، ولحسن الحظ أنه لا يعلم عنه أي شيء سوى رقم هاتفه هذا..

وعاد إلى منزله، وهو يغير ملابسه شاهدت أمل ذراعه المضمدة، فشهقت في جزع وسألته: ماذا حدث يا حاتم؟ ماذا أصاب ذراعك؟

قال لها باسما: لا تقلقي يا عزيزتي، إنه جرح صغير أثناء خروجنا من مركب غارق، ارتطمتُ بقطعة حديدية بارزة لم ألتفت لها فجرحتني..

قالت له في خوف: كن حذرا يا حاتم، أنا لست مستعدة لفقدك. ابتسم حاتم وضمها إلى صدره في حنان، وقال لها: لا تقلقي يا عزيزتي، لقد كانت هذه هي الرحلة الأخيرة، ولن أذهب معهم مرة أخرى، لن أذهب معهم مرة أخرى أبدا..

openkan.com

محتويات

الإهداء ٣
المقدمة ٤

الجزء الأول (من الحياة حكايات)
الحكاية الأولى
عازفة الفلوت..... ٨
الحكاية الثانية
النبوءة..... ١٧
الحكاية الثالثة
المهرّج ٢٢
الحكاية الرابعة
حدث في طاجستان ٣٠
الحكاية الخامسة
ذكرى «الفلانتين»..... ٣٦

obeikan.com

الجزء الثاني (عن الخيال نحكي)
الإعصار.....٤٠
رحلة إلى ما قبل التاريخ.....٥٨

الجزء الثالث (غواص علي الطريق)
البداية.....٧٥
الفصل الثاني
حادث على الطريق.....٨١
الفصل الثالث
غواص تحت الطلب.....٨٩
الفصل الرابع
غواص تجاري.....٩١
الفصل الخامس.
الرحلة ٩٦

obeikan.com

للتواصل مع الكاتب

موبيل ٠١٠٦٠٢٦٤٦٥٦
ga7eem_danty@yahoo.com

رامي يوسف قليد روفائيل

obeikan.com